

لينين والمسألة اليهودية

بقلم جورج طرابيشي

« أمة يهودية » واعتبر نفسه التنظيم القومي المستقل الأوحسد للبروليتاريا اليهودية ، وتبنى من الناحية الثانية مبدأ الاتحادية في العلاقة مع « حزب عمال روسيا » . وكان هذان القراران بمثابة خرق خطير لقرارات مؤتمر ١٨٩٨ وخطوة أولى على طريق الانفصال السافر عن « حزب عمال روسيا » . ولئن كان هذا الانفصال لم يأخذ صفة رسمية إلا في صيف ١٩٠٣ ، فإن قادة البوند قد خطوا له بمهارة وخبث منذ مؤتمرهم الرابع على ما يبدو .

ولتجاوز ان نعيد بناء الصورة التاريخية لكل ما حدث . لقد خطت الحركة العاملة في روسيا خطوة واسعة الى الامام بعد مؤتمر ١٨٩٨ التأسيسي وفي أعوام ١٩٠٠ - ١٩٠٣ ، أعوام الأزمة الاقتصادية العالية .

ولكن « حزب عمال روسيا » لم يكن قد أصبح بعد حزبا بالمعنى الكامل للكلمة . ذلك ان مؤتمر ١٨٩٨ لم يضم سوى تسعة مندوبين ، ولم تلبث اللجنة المركزية التي انتخبها أن اعتقلت ، كما ان البيان الذي صدر عنه تضمن نقاط ضعف عديدة وفي مقدمتها التزامه جانب الصمت عن قيادة البروليتاريا للثورة . أضف الى ذلك ان الحزب بقي بلا برنامج وبلا نظام داخلي وبلا قيادة موحدة . وإنما في سبيل ولادة حقيقية لهذا الحزب ، وفي سبيل تجاوز توحيدته الشكلي صدرت في أواخر عام ١٩٠٠ صحيفة « الايسكرا » (الشرارة) اول صحيفة سياسية ثورية عموم روسيا (من الشرارة سيندلح الحريق ، كما قال بوشكين ابان ثورة عام ١٨٢٥) .

وكان لينين هو الرأس المدبر للايسكرا ، وكانت خطته ابان وضع حد لتسيب الحزب الليبرالي والوصول الى توحيد على أسس المرحلة الايسكرية هذه النضال السياسي والايديولوجي في سبيل ثورية سليمة : « قبل ان نتحد وحتى نتعد يجب ان نبدأ بتحديد حدودنا بدقة ووضوح » ، كما جاء في بيان هيئة تحرير الايسكرا الذي أعلنت فيه عن عزمها على اصدار الصحيفة (١) . ولئن كانت « المرحلة الايسكرية » قد تميزت بضراوة النضال ضد « الاقتصاديين » الذين أرادوا قصر نضال البروليتاريا الروسية على المطالب الاقتصادية والمهنية دون المهام السياسية ، فإن رشاش المعركة أصاب أيضا البونديين باعتبار أنهم كانوا متأثرين بالنزعة الاقتصادية الى حد بعيد .

وقد أخذ التحالف بين الاقتصاديين والبونديين ضد الايسكرين طابعا سافرا في اجتماع بييلوستوك الذي انعقد في آذار ١٩٠٢ والذي حيل بين الايسكرين وبين حضوره (وصل أحد مندوبيهم متأخرا ، ومنع الثاني من الحضور ، واضطر الثالث الى الانسحاب) . وقد حاول اجتماع بييلوستوك أن ينصب نفسه مؤتمرا ثانيا لحزب عمال روسيا وأن يصدر قرارات اقتصادية - بوندية ملزمة لجميع منظمات الحزب . ولكن محاولته هذه فشلت ، فاكفئ بتشكيل « لجنة تنظيمية » ثلاثية (أحد أعضائها هو بورتنوي البوندي) مهمتها اعداد للمؤتمر الثاني للحزب . ولكن بعد فترة وجيزة من انعقاد الاجتماع اعتقلت السلطات القيصرية اعضاء اللجنة التنظيمية باستثناء ممثل

لم يطرح لينين قط المسألة القومية على صعيد نظري خالص . فليتين ليس عالم اجتماع ، بل هو قبل كل شيء قائد ومناضل سياسي يطرح الامور دوما من وجهة نظر الحزب بوصفه أداة الثورة الاشتراكية . ولئن سود لينين صفحات كثيرة حول « المسألة اليهودية » ابتداء من عام ١٩٠٣ ، فهذا على وجه التحديد لان المسألة اليهودية طرحت نفسها كجزء لا يتجزأ من مشكلة تنظيم حزب عمال روسيا الاشتراكي - الديمقراطي . ففي عام ١٩٠٣ كان على لينين كما رأينا ان يناضل فكريا وسياسيا في سبيل تأسيس حزب عمالي ماركسي ثوري لعموم روسيا . وكانت اخطر العقبات التي تواجه ولادة مثل هذا الحزب كما رأينا الروح الخلفية والروح القومية الضيقة . وقد اجتمع هذان العيبان على نحو مثير للفضول في منظمة « الاتحاد العمالي اليهودي لليتوانيا وروسيا وبولونيا » المعروفة في التاريخ باسم « البوند » . فلقد تأسس البوند في عام ١٨٩٧ على اساس ديني (أو قومي) يهودي . وكان أول منظمة اشتراكية - ديموقراطية تظهر الى الوجود في روسيا . وعندما تداعى الماركسيون الروس في آذار ١٨٩٨ لتوحيد صفوفهم ، كان البوند من أبرز المنظمات التي حضرت ذلك المؤتمر التأسيسي الاول الذي تقرر فيه تشكيل « حزب عمال روسيا الاشتراكي - الديمقراطي » . ولم يكن المقصود بـ « روسيا » دولة « الروسي - الكبار » ، بل الدولة القيصرية التي كانت بمثابة فسياف من الشعوب (سجن الشعوب كما سيفول لينين) . ومنعا لكل التباس اختار مؤتمر ١٨٩٨ اسم « حزب عمال روسيا ... » لا « حزب العمال الروسي » وحتى « لا يمكن لاحد أن ينسب اليه صفة قومية » (١) . وقد قرر البوند الاندماج بهذا الحزب بوصفه منظمة مستقلة ذاتيا فيما يتعلق بشؤون البروليتاريا اليهودية والاعتراف بالاستقلال الذاتي للبونديين لم يكن المقصود منه الاعتراف بصفتهم القومية وإنما فقط بتحتمهم في مخاطبة العمال اليهود بلقنتهم المحلية « الادشية » وفي الاهتمام بشؤونهم الخاصة بحكم وضعهم الخاص كاقليبة دينية مضطهدة تئن تحت نير الاوتوقراطية الروسية ومجازرها اللاسامية التي لا يحصى لها عد . وقد أوضح لينين منذ عام ١٨٩٩ أن البوند ليس له طابع سياسي خاص وأنه لا يشكل تنظيميا « على حدة » والا ما كان اندماج مع المنظمات الروسية ضمن اطار « حزب عمال روسيا » (٢) . ومع ذلك فإن الصيغة البهمة التي صيغ بها قرار مؤتمر ١٨٩٨ فيما يتعلق بـ « الاستقلال الذاتي للبوند بصدد المسائل الخاصة بالبروليتاريا اليهودية » تركت الباب مفتوحا امام البوند ليعلم نفسه فيما بعد حزبا قوميا للبروليتاريا اليهودية . وتلك هي على وجه التحديد نقطة الانطلاق في المساجلة الكبرى التي قامت في صفوف الاشتراكيين - الديموقراطيين بصدد المسألة اليهودية في عام ١٩٠٣ .

ففي نيسان ١٩٠١ عقد البوند مؤتمره الرابع واتخذ فيه قراراتين خطيرتين : فقد تبنى من ناحية أولى الفكرة الصهيونية عن وجود

(١) : « الى العمال اليهود » - م . ك - ٨م - ص ٥٠٢ .

(٢) : « حركة متخلفة في الاشتراكية - الديموقراطية الروسية »

البوند كـ بورتنوي .
وهنا على وجه التحديد تبدأ مرحلة مريرة من الصراع بين
الايسكريين (لينين) والبوندين . وفي هذه المرحلة أيضا يتكشف
لنا وجه للينين هو غير الوجه الذي ألفناه ، وجه من يلعب ويحسن
اللعب من وراء الستار ، و« ينكتك » ويحسن « التكتكة » ، ويطبق
اللجان والمؤتمرات مع حفاظه على احترام شكلي للضوابط التنظيمية
ومن غير خرق فظ أو مكشوف للشريعة الحزبية . ولعل ما يفسر
لجوء لينين الى هذا الاسلوب قوة البوندين التنظيمية وضعف
الايسكريين ، وكذلك مناورة البوند في اجتماع بيبولوستوك لفرض خطه
وتكتيكه على مجمل منظمات الحزب . ولئن كان البونديون هم الذين
بادروا الى تشكيل اللجنة التنظيمية الاولى المكلفة باعداد المؤتمر
الثاني للحزب ، فان لينين هو الذي سيصدر هذه المرة الى تشكيل
لجنة تنظيمية ثانية تكون الغالبية فيها للايسكريين بعد اعتقال
اعضاء اللجنة الاولى .

وقد وقع اختيار لينين على مناضل يدعى لينيك ليتولى تشكيل
اللجنة التنظيمية . وقد تولت كروبسكايا ، زوجة لينين ، ابلافه هذا
القرار وارسلت اليه في ٢٢ أيار ١٩٠٢ رسالة تعلمه فيها باعتقال
اعضاء اللجنة التنظيمية السابقة باستثناء كـ بورتنوي الذي
يتوجب على لينيك أن يتصل به لتشكيل اللجنة التنظيمية الجديدة .
وتضيف كروبسكايا في رسالتها : « كن دبلوماسيا مع البوندي ولا
تكشف اللعبة كلها » (١) .

وفي اليوم نفسه أرسل اليه لينين رسالة ثانية بالمعنى ذاته
 طالبا اليه أن يعشد اكب عدد « من جماعتنا » في اللجان وان يكون
مع البوند « حكيما حكمة الثعبان ، وديعا وداعة الحمامة » (٢) .
وبعد شهر واحد بالضبط أرسل لينين الى ارКАДي راد تشكو
رسالة يطلب اليه فيها العمل على تشكيل « لجنة روسية » للاعداد
للمؤتمر الثاني وينبه فيها الى ضرورة التعاون مع مندوب البوند
شريطة عزله وعدم افساد المجال له الا للاهتمام « بشؤون البوند
وحدها » . ويضيف بأنه يجدر به (رادتشكو) أن يعلن سلفا عن
تشكيل اللجنة المذكورة حتى يقطع الطريق على البوند وحتى يملك
حرية كاملة في التصرف ، وكل هذا « بحذر شديد » حتى لا يعرض
نفسه للملامة . (٣) .

وفي رسالة اخرى الى رادتشكو في ١٦ تموز ١٩٠٢ ينصحه بأن
« يكون حذرا جدا ومتحفظا مع البوند ، من غير ان تكشف لمبتك ،
تاركنا البوند يهتم بشؤون البوند ، من غير ان تسمح له بان يدسأنفه
في الشؤون الروسية . وتذكر أنه صديق غير موثوق (ان لم يكن
عدوا) » (٤) .

وفي آب ١٩٠٢ عقدت اسرة تحرير الايكرأ مع ممثلي لجنة الحزب
في بيتر سبورغ وممثلي « اتحاد الشمال » اجتماعا تم فيه تكوين
النواة الايسكرية للجنة التنظيمية . وهذه النواة هي التي فرضت
نفسها على اجتماع مدينة بسكوف في تشرين الثاني ١٩٠٢ ، وهو
الاجتماع الذي قررت فيه القيادات الاشتراكية - الديمقراطية انشاء
« اللجنة التنظيمية » . وكان من أعضائها كراسيكوف . ويبدو أن
كراسيكوف هذا كان بارعا في المناورة الى درجة أن لينين هنا في
رسالة منه اليه في تشرين الثاني ١٩٠٢ على أنه « يتقدم بسرعة
الى الامام بقضية اللجنة التنظيمية » . ولكن لينين أبدى دهشته
في الرسالة نفسها من ان كراسيكوف هذا شكل اللجنة من ستة
اعضاء عينهم تعيينا حتى قبل ان يختارهم المجتمعون «حسب الاصول»
وحتى « قبل دعوة البوند » الى المساهمة في اللجنة . ويضيف لينين

اوروبا الديمقراطية أو لا . (٢)

(١) : م . كـ م - ٣٦ - ص ٦٤٥ .

(٢) : م . كـ م - ٣٦ - ص ٩٩ .

(٣) : م . كـ م - ٣٦ - ص ١٠٠ .

(٤) : م . كـ م - ٣٦ - ص ١٠٨ .

(١) : م . كـ م - ٢٤ - ص ١١٨ .

(٢) : م . كـ م - ٦٠ - ص ٣٢٤ - ٣٣١ .

لقد أراد البوند من خلال هجومه على اللجنة التنظيمية مناظرة علنية . اذن فلنكن علنية . واذا كان لينين قد التزم الصمت حول مواقف وتصريحات سياسية ومذهبية عديدة للبوند حرصا على وحدة التنظيم وانتظارا للمؤتمر الثاني للحزب ، فلا مفر بعد الآن من مجابهة صريحة . ولا بأس من العودة قليلا الى الوراء ومحاسبة البوند على مواقف الانفصالية السابقة . والحق ان المرء لا يحتاج الى الايفال بعيدا في ماضي البوند . أفلم تنشر « بوسليدينه اذفستيا » الناطقة بلسان « لجنة البوند في الخارج » قبل اسبوع واحد لا غير من هجومها على اللجنة التنظيمية مقالا مرا في انفصاليته اعلنت فيه بصفاقة ، ضاربة عرض الحائط بمقررات مؤتمر 1898 ، أن « البروليتاريا اليهودية قد نظمت نفسها في حزب سياسي متميز ، البوند » ؟ ان المؤتمر الرابع للبوند الذي تبنى الفكرة الصهيونية عن وجود أمة يهودية لم يجرؤ هو نفسه على اعلان ما اعلنته « بوسليدينه اذفستيا » . فصحيح ان المؤتمر الرابع ذلك تبنى المبدأ الاتحادي كشكل ناظم للعلاقة بين البوند وبين حزب عمال روسيا ، ولكن البونديين صرحوا بعد ذلك بطريقة لا تقبل النباسة أنهم انما يريدون ان يقنعوا حزب عمال روسيا بان يتبنى بدوره قرار مؤتمرهم الرابع . وهذا يعني ان البوند كان ما يزال يعتبر نفسه جزءا من حزب العمال . ولكن ها هو يعلن فجأة ، وبعد انصرام حوالي سنتين على مؤتمره الرابع ، أن البروليتاريا اليهودية قد نظمت نفسها في حزب سياسي متميز . وهذا ، والحق يقال ، نبا جديد . وانما تطبيقا لهذا القرار الجديد شنت صحيفة البوند ، في المقال نفسه ، هجوما مقزعا على لجنة الحزب في مدينة بيكاتيرينوسلاف الاوكرانية التي كان فيها عدد لا بأس به من العمال اليهود . أما سبب الهجوم فهو أن لجنة الحزب في تلك المدينة قد اباحت لنفسها حق اصدار بيان تعلن ضرورة وحدة جميع العمال من شتى القوميات وشتى الاديان في حزب واحد هو الحزب الاشتراكي - الديمقراطي ، وتوجه بشكل خاص الى العمال اليهود لتؤكد لهم ضرورة تلك الوحدة باسم مصالحهم القومية بالذات وحفاظا على ثقافتهم القومية وتطورها . ولقد غضبت قيادة البوند غضبها المريرة لان لجنة بيكاتيرينوسلاف لم تات في بيانها على ذكر البوند وتجاوزته وتعدت على حقوقه بمخاطبتها العمال اليهود مباشرة . أما الدواعي المذهبية لفصبتها فهي أن لجنة بيكاتيرينوسلاف « لم تهضم فكرة ضرورة تنظيم منفصل لقوى البروليتاريا اليهودية » وأنها « ما تزال تداعب حلما مجنوننا بالتخلص من البوند بطريقة أو أخرى » وأنها تتجاهل « وجود الحركة العاملة اليهودية المتميزة » وأنها تشيع « اسطورة ضارة » تزعم أن اللاسامية هي من صنع الفئات البورجوازية وحدها وليست ايضا من صنع الفئات العمالية . وبديهي ان السؤال الذي يطرح نفسه بعد كل هذه الثروة الفارغة القومية النزعة هو « هل البروليتاريا اليهودية بحاجة الى حزب متميز ؟ » . وبالفعل تحت هذا العنوان نشر لينين في العدد 34 من الايسكرا في 15 شباط 1903 مقالا يسهفه فيه تسفيها شديدا شتى الاراء التي ابدتها « بوسليدينه اذفستيا » :

ليس من حق البوند ان يحتج على تجاوزه من قبل لجنة بيكاتيرينوسلاف لان البوند لا وجود له في هذه المدينة ولان اللجنة المذكورة لم تتوجه الى العمال اليهود قاطبة وانما الى العمال اليهود في بيكاتيرينوسلاف وحدها .

ان البوند نفسه قد قرر في مؤتمره الرابع أنه لن يشكل لجانا متميزة في المدن التي تشكل فيها المنظمات اليهودية جزءا من حزب عمال روسيا .

ان دعوة البوند لقيام تنظيم منفصل لقوى البروليتاريا اليهودية هي في الحقيقة دعوة الى تنظيم « عجز البروليتاريا اليهودية » لا قواها ، بل هي دعوة الى تنظيم عجز بروليتاريا روسيا كلها ، لان المنطق الكامن وراء هذه الدعوة منطوق رجعي وطائفي خطر ليس له

من نتيجة غير زرع الانقسام في صفوف الحركة العاملة . وليس ازل على ذلك من حديث البوند عن « منظمة عمالية يهودية مستقلة » وعن « منظمات عمالية مسيحية » . والحال انه لا وجود لمنظمات (مسيحية) في الحزب الاشتراكي - الديمقراطي ، ولم يكن الدين في يوم من الايام اساسا مشروعا لانقسام العمال او تمايزهم .

ان زعم البوند بان اللاسامية انتقلت الى صفوف الحركة العاملة ولم تعد وفقا على الفئات البورجوازية زعم باطل ودنيء . والبرهان الذي يأتي به البوند على زعمه هذا باطل هو الاخر بل مضحك . ان التذرع في هذا المجال بواقع ان بعض العمال (خمسة او عشرة) قد شاركوا في احدى مجازر اليهود او هددوا بالمشارة فيها ، لا يمكن ان يصدر الا عن فئة اعتادت المساهمة في الاضرابات الجماهيرية بخمسة او عشرة من اعضائها . ولو رجع البونديون الى كتاب كاوتسكي « الثورة الاجتماعية » الذي ترجموه الى اللغة الالمانية (لغة يهود روسيا) لتبينوا بما لا يدع مجالا للشك ان اللاسامية مرتبطة ارتباطا وثيقا بل حتما بمصالح الفئات البرجوازية لا بمصالح الفئات العمالية . والحق انه بقدر ما كانت لجنة بيكاتيرينوسلاف محقة في دحضها الاسطورة الصهيونية بصد الطابع الابدي الازلي للاسامية ، كانت قيادة البوند مجحفة بحق قضية الطبقة العاملة (اليهودية وغير اليهودية) لانها بتجربتها النزعة اللاسامية من طابعها التاريخي والبورجوازي انما تشوش في الحقيقة وعي البروليتاريا الطبقي .

ان الخطأ الذي يرتكبه البوند هو اكبر وافدح خطأ يمكن اقتراه في المسألة القومية ، لان مقتضيات النضال ضد الاوتوقراطية تستدعي وحدة عمال جميع القوميات المضطهدة من قبل هذه الاوتوقراطية لانتشيتهم وعزلهم في منظمات قومية مستقلة وضيقة الاق . والواقع انه من اللحظة التي طالب فيها البوند بمبدأ الاتحاد بدلا من الاستقلال الذاتي ، أمسى واجبا عليه ان يعلن نفسه « حزبا سياسيا متميزا » حتى تناح له امكانية تحقيق ذلك الاتحاد بأي ثمن . ولو لم يبرغ البوند نفسه في وحل النزعة القومية الضيقة ، لكان من الممكن ان يرى في مقررات مؤتمر 1898 ما يكفل له كل الاستقلال الذاتي الذي هو بحاجة اليه فيما يخص البروليتاريا اليهودية : الدعاية والتحرير بالادشية ، المنشورات والمؤتمرات ، تقديم مطالب خاصة على اساس البرنامج الاشتراكي - الديمقراطي الواحد المشترك ، وتلبية الحاجات المحلية والمطالب المحلية النابعة من خصوصيات نمط الحياة اليهودية . أما فيما عدا ذلك ، وفي المسائل الجوهرية المتعلقة بالنضال ضد الاوتوقراطية في روسيا قاطبة ، فلا غنى عن منظمة نضالية موحدة وممركزة تضم بروليتاريا روسيا كلها دونما تمييز لغوي او قومي . (1)

لقد تحدد اذن العدو الرئيسي الذي سيواجهه الايسكريون في المؤتمر الثاني للحزب . ففي الوقت الذي كان فيه الاتجاه الاقتصادي قد سجل تراجعا ملموسا في صفوف الاشتراكيين - الديمقراطيين ، وفي الوقت الذي لم يكن فيه الاتجاه المنشفي قد أعلن عن وجوده بعد ، أمسيت النزعة القومية الضيقة كما يمثلها البوند هي اخطر ما يهدد وحدة الاشتراكيين - الديمقراطيين وسلامة الاسس التي يريدون ان يقيموا عليها تنظيمهم الموحد . ومن هنا فقد أصبح من الواجب استنفار قوى الايسكريين كافة لمواجهة خطر الانحراف والتحرير البوندي .

ورسائل لينين الخاصة غير المكتوبة برسم النشر لا تدع مجالا للشك في هذا الصدد . ففي 31 آذار 1903 ارسل لينين من لندن رسالة الى أعضاء اللجنة التنظيمية يطلب اليهم فيها « تهيئة الميدان في كل مكان وبين الجميع للنضال ضد البوند في المؤتمر » ، ذلك ان « البوند لن يتخلى عن مواقفه بدون نضال صار . والحال انه لن

يكون في وسعنا ابدأ أن نتبنى موقفه . وتصميمنا الحازم على المضي الى النهاية ، الى حد فصل البوند من الحزب ، هو وحده الذي سيرغمه بلا ريب على الرضوخ » (١).

وفي رسالة اخرى في ٣ نيسان ١٩٠٣ الى كريانوفسكي يؤكد لينين ضرورة استمرار المناظرة مع البوند بصدد المبادئ وان كان قد تم ايقاف المناظرة بصدد اللجنة التنظيمية ، ويضيف بأنه « يجب ان نعد العدة للحرب ضد البوند اذا كنا نريد السلم معه . الحرب في المؤتمر ، الحرب الى حد الانشقاق ، ومهما يكن الثمن . فانذاك فقط سيرضخ » . (٢)

ويؤكد لينين في رسالة الى الكسندرونوفا بتاريخ ٢٢ ايار ١٩٠٣ ان « تهيئة اللجان ضد البوند واحدة من اهم المهام في الوقت الراهن ، وهي ممكنة تماما بدون خرق الشكليات » . والحرص على هذه « الشكليات » ضروري لانه « في وسع البونديين ان يذهبوا اذا شاؤوا ، ولكن علينا نحن الا تقدم لهم أي ذريعة ، ولا ظلا من ذريعة للقطيعة » . (٣)

وبالمقابل فان البوند ، الذي ادرك على ما يبدو الخطة التي تدبر ضده في المؤتمر الثاني للحزب ، راح يبذل كل جهوده لعرقلة انعقاد مؤتمر ايسكري الاتجاه . كما أنه بادر في حزيران ١٩٠٣ الى عقد مؤتمره الخامس حتى يرسم خطة مضادة . وقد اتخذ المؤتمر الخامس هذا قرارا ينص على ان « البوند هو منظمة متحدة مع حزب عمال روسيا الاشتراكي - الديمقراطي » وعلى ان البوند هو « الممثل الاوحد للبروليتاريا اليهودية » . وتنفيذا لبدا احتكار تمثيل البروليتاريا اليهودية هذا الفى المؤتمر الرابع والذي ينص على ان البوند لن يشكل لنفسه منظمات متمايزة في المناطق التي يكون فيها العمال اليهود منتمين الى المنظمات الاشتراكية - الديمقراطية . وتنفيذا لذلك المبدأ أيضا قرر المؤتمر الخامس ان اللجنة المركزية لحزب عمال روسيا لا يحق لها ان تتوجه الى اي عامل يهودي في اي بقعة من بقاع روسيا مهما كانت نائية ، حتى وان لم يكن فيها تنظيم مستقل للبوند ، الا بواسطة اللجنة المركزية للبوند وبموافقتها . وكانت هذه القرارات تعني عمليا ان البوند قد حزم أمره على الانفصال عن حزب عمال روسيا نهائيا . وتجنبنا لتهمة الانفصالية هذه ، وذرا للرمداد في العيون ، صاغ المؤتمر الخامس مقرراته تلك في صورتين : مقررات الحد الاعلى ومقررات الحد الأدنى . ولم يكن من فارق بين الصيغتين الا في الشكل لا في المضمون . ومقررات الحد الأدنى هي نفسها مقررات الحد الاعلى ، وكل ما هنالك انها مموهة ، ولا تسمي الاشياء باسمائها . فقد حذفت منها الاشارة الى مبدأ الاتحاد ولكن مع الاحتفاظ بكل نتائجه العملية . وكان واضحا من الازدواجية الشكلية لهذه المطالب ان الهدف هو المساومة والمناورة . فان لم يقبل المؤتمر الثاني لحزب عمال روسيا بمطالب الحد الاعلى ، قدمت اليه مطالب الحد الأدنى . فاذا ما رفضها بدورها ظهر بمظهر المتصلب المشنج وتلبسته هو تهمة الانفصالية ، بينما سينجو البوند بجلده اذ يكون قد ظهر بمظهر المتساهل الذي لا يحجم عن تقديم التنازلات بهدف الحفاظ على الوحدة .

انسحاب البوند

آن لنا الآن أن ندلف الى قاعة المؤتمر الثاني لحزب عمال روسيا بعد أن طفنا بما فيه الكفاية في الكواليس والمرات الجانبية المفضية اليه . والحقيقة ان المؤتمر لم يكن له من قاعة يعقد فيها . فقد اجتمع اولاً سرا في بروكسل ثم في لندن بين ١٧ تموز و ١ آب ،

وحضره ٤٣ مندوبا يمثلون ٢٦ منظمة ولهم ٥١ صوتا فعليا (اذ كان ثمانية منهم يحمل تفويضين) وبينهم ٥ مندوبين عن البوند . وقد تم في اليوم الاول تشكيل « لجنة التفويضات » ومهمتها دراسة « اوراق اعتماد » المندوبين والتحقق من شرعية تمثيلهم لمنظماتهم . وكان من ضمن اعضاء اللجنة ، بالإضافة الى لينين ، أحد مندوبي البوند . وقد اتبع هذا الخطة التي كان قد اتبعها سلفه في « اللجنة التنظيمية » ، أي العمل بكل وسيلة ممكنة على عرقلة أعمال المؤتمر . فراح يضع العصي بين العجلات ويخالف رأي اللجنة في كل مسألة ويدخل في مناقشات لا نهاية لها ثم يعلن بعد ذلك أنه « يحتفظ برأيه » بصدد كل موضوع . وعندما لفت نظره في خاتمة الطاف الى أنه يعرف بموقفه هذا أعمال المؤتمر ، اجاب : « حسنا ، فليكن الامر كذلك ! » ، وأعلن أنه على استعداد لان يقيم في اللجنة « ما اقام عسيب ! » . ولم تتمكن اللجنة من انتهاء دراسة اوراق اعتماد المندوبين الا في الساعة الثالثة صباحا !

وفي اليوم التالي افتتح المؤتمر جلساته بمناقشة اولويات جدول أعماله . وكان هناك رأي يميل الى اعطاء الاولوية لتقارير المنظمات ومشروع برنامج الحزب ، ولكن لينين (واللجنة التنظيمية) عارض ذلك ، وطلب ان تكون مسألة البوند ومكانته في الحزب في رأس جدول الاعمال . وكان هذا معناه ان على المؤتمر ان يقرر قبل كل شيء ما اذا كان البوند يشكل جزءا من الحزب أو لا . واذا جاء القرار بالاجاب امكن للبوند ان يحضر سائر جلسات المؤتمر ، والا فلا . لماذا ؟ لان المؤتمر انعقد على اساس بيان ١٨٩٨ ، والحال ان البوند قد أعلن عن عدم التزامه بهذا البيان منذ ان قرر ان تكون علاقاته مع الحزب علاقات اتحادية .

وبدا المؤتمر بالفعل يبحث مسألة مكانة البوند في الحزب . وتلي على الحضور « مشروع قرار حول مكانة البوند في الحزب » ، وهو المشروع الذي كان لينين قد أعده قبل أيام من انعقاد المؤتمر وناقشه مع عدد من المندوبين واتفق معهم على خطة العمل . وكان مشروع القرار هذا ينص على رفض المبدأ الاتحادي في تنظيم الحزب وعلى توكيد المبدأ التنظيمي المركزي الذي نص عليه بيان ١٨٩٨ ، وذلك حفاظا على وحدة نضال الطبقة العاملة ، ولا سيما وحدة البروليتاريا اليهودية والبروليتاريا غير اليهودية ، لا في سبيل الوصول بأسرع ما يمكن الى الهدف النهائي الذي هو تحرير المجتمع عن طريق تحرر البروليتاريا فحسب ، بل أيضا في سبيل الوصول الى فعالية حقيقية في النضال ضد اللاسامية والمشاحنات القومية البغيضة التي هي من صنع الأوتوقراطية والطبقات المستغنية . (١) وتقدم البوند بمشروعه المضاد الذي ينص على اعتماد المبدأ الاتحادي ، واحتدم النقاش . ووقف ف . كوسوفسكي ، مندوب البوند ، يعلن ان ثمة مؤامرة قد حيكت ضد البوند في المؤتمر وان هذا المؤتمر يشكل « غالبية كتيمة » لا يمكن النفاذ اليها وليست على استعداد لاي تفاهم أو تنازل .

وانبرى لينين يرد عليه ويؤكد أنه اذا كان المؤتمر قد توصل الى تشكيل « غالبية كتيمة » ، فهذا لا يدعو الى الخجل والاستنكار ، وانما على العكس الى الافتخار . ولسوف يزداد الحزب فخرا فيما لو اصبح ٩٠ ٪ من أعضائه يمثلون « غالبية كتيمة » بل « كتيمة جدا » . ففي هذا دليل على انه قد أصبح حزبا بكل ما في الكلمة من معنى ، حزبا موحدا . ويكفي الحزب داء الآن انه منقسم الى مجموعات وتكتلات . ومع ذلك فان البونديين يريدون أن يزيدوا في انقساماته أضعافا مضاعفة عن طريق تكرارها في كل حزب « قومي » متحد بوهم طريق تكريس الانعزال والانقسام والخصوصية باسم الاتحادية . (٢)

(١) : م . ك - ٦ م ص ٤٩٢ - ٤٩٣ .

(٢) : « خطاب حول مسألة مكانة البوند » - م . ك - ٦ م ص

(١) : م - ك م ٣٤ - ص ١٥٤ .

(٢) : م . ك - ٣٤ - ص ١٥٥ .

(٣) : م . ك - ٣٤٤ ص ١٦٠ .

ووقف كذلك لير ، زعيم البونديين ، يدافع عن مبدأ الاتحاد الاستقلال الذاتي ، ولكن من وجهة نظر غريبة وتدعو الى الإبتسام حقا . فما دام المؤتمر حريصا الى هذا الحد على المركزية ، غير مستعد للتنازل ولو قيد انملة بصدها ، فلا بأس أذن من قلب المفاهيم رأسا على عقب والادعاء بأن الاتحادية هي المركزية في حين أن الاستقلال الذاتي هو اللامركزية . ولينين هو الذي انبرى أيضا لتنفيذ هذا الادعاء المضحك: هل يعتقد لير أن أعضاء المؤتمر أطفال في السادسة من العمر حتى « يمرر » عليهم مثل هذه السفطات ؟ فالمركزية انما تعني ، تعريفا ، غياب كل حاجز بين المركز والاطراف مهما نات وابتعدت ، ومن حق المركز أن يصل مباشرة الى أي عضو من أعضاء الحزب . والحال أن الاتحادية التي يقترحها البوند تعني أن المركز لا يحق له أن يتصل بأي عامل يهودي عن غير طريق قيادة البوند . فكيف يمكن إذن أن تكون الاتحادية هي المركزية ؟ وهل يقبل البوند نفسه بتطبيق مثل هذه «المركزية الاتحادية» على نفسه ؟ هل تقبل قيادة البوند بمركزية لا تسمح لها بالاتصال بالحزبيين والمنظمات الحزبية في هذه المدينة أو تلك الا عن طريق لجنة المدينة ؟ أن البوند يزعم أنه يريد الاتحادية لتجنب « التدخل الأعشى » من قبل المركز في شؤون المنظمات الحزبية . ولكن هل يتصور البوند أن الحزب يقبل على نفسه بأن تكون على رأسه قيادة مركزية تتدخل تدخلًا أعشى في شؤون منظمات الحزب ؟ ألم يقر الحزب أصلا بمبدأ الاستقلال الذاتي لجميع منظمات الحزب بهدف الحيولة دون « التدخل الأعشى » من قبل المركز ، مع بقاء تلك المنظمات خاضعة في الوقت نفسه للمركز ؟ والحقيقة أن البوند لم يتحدث عبثا عن « التدخل الأعشى » ولم يشكك عبثا في نزاهة القيادة المركزية . فكل المبادئ التنظيمية الاتحادية التي يقترحها ليست في الواقع سوى « ربة منظمة » . والحقيقة أيضا أن البوند الذي نظم نفسه في الداخل على اساس مركزي لا يريد لمجموع الحزب أن يتوصل الى نفس المستوى من التنظيم . وما أشبهه البوند في هذه الحالة بنقابات عمال المناجم الانكليزية .

فلقد وصلت هذه النقابات الى مستوى مرموق من التنظيم وحصلت بفضل ذلك على تقليص يوم العمل الى سبع ساعات . ولكنها لهذا السبب على وجه التحديد راحت تعارضها ، مدفوعة بانانياتها ، مطالبة سائر العمال الانكليز بتقليص يوم العمل حتى الى ثماني ساعات . والحق أن تصور هذه النقابات عن وحدة البروليتاريا لا يقل ضيقا عن تصور رفاقنا البونديين . الا فليكن مثال عمال المناجم الانكليز التعيس هذا بمثابة تحذير لرفاق البونديين ! (1)

وانتهت المناقشة حول مكانة البوند في الحزب الى حل وسط . فقد اتخذ المؤتمر قرارا مبدئيا عاما بادانة مبدأ الاتحادية في التنظيم وباعتماد مبدأ المركزي وحده . اما مكانة البوند في الحزب فقد قرر تأجيل بحثها الى حين مناقشة نظام الحزب الداخلي . وبالرغم من عمومية القرار وطابعه التوفيقي ، فقد كان نصرا مبينا للاتجاه الايسكري ، نصرا لا على البوند وحده ، بل أيضا على مختلف الميول الاتحادية والانفصالية التي كانت قد شرعت بالبروز في اوساط الاشتراكيين - الديمقراطيين « القوميين » كالبولونيين والمليتونيين والليتوانيين والأرمن . وليس هذا فحسب ، بل أن مفعول القرار تجاوز اطار روسيا الى الصعيد الاممي . فقد كان ردا شبه مباشر على القرار الذي كان قد اتخذته الاشتراكيون - الديمقراطيون النمسيون قبيل انعقاد المؤتمر الثاني باعتماد مبدأ الفيدرالية في التنظيم الحزبي وبتحويل حزبهم الى مجموعة من أحزاب متحدة على اساس القوميات .

ونشبت الخصومة الثانية مع البوند في المؤتمر عند مناقشة مشروع برنامج الحزب ، ولا سيما الفقرة المتعلقة منه بحق الامم في تقرير مصيرها . فقد حاول ممثلو البوند ، استكمالا لنظرياتهم

« النموية » الاتحادية والقومية النزعة ، ان يعارضوا شعار حق الامم في تقرير مصيرها بشعار الاستقلال الذاتي القومي الثقافي . ولكن معارضتهم هذه لم تأخذ طابعا عنيفا . والسبب في ذلك أنهم ما كانوا منحمسين آنذاك عظيم الحماسة لمبدأ الاستقلال الذاتي الثقافي وما كانوا قد ادركوا بعد مقدار تلازم هذا المبدأ مع نظريتهم عن وجود أمة يهودية . وصحيح أن مؤتمرهم الرابع كان قد تبني شعار الاستقلال الثقافي ، ولكنه فعل ذلك بصورة متسرعة ودونما مناقشة مفصلة ومعقدة ودونما بحث في ظروف حياة اليهود في روسيا . وقد اعترف ف . كوسوفسكي نفسه فيما بعد بالصورة المتسرعة التي تم بها اقتباس شعار المدرسة النموية فقال : « عندما بحثت القضية القومية في مؤتمر البوند الرابع اقترح أحد أعضاء المؤتمر حل القضية القومية وفق منهاج الحزب الاشتراكي - الديمقراطي السلافي الجنوبي ، فلاقى اقتراحه استحسانا عاما ، ونتيجة لذلك فإن المؤتمر قبل بالإجماع الاستقلال الذاتي القومي الثقافي » .

والواقع أن البونديين في المؤتمر الثاني لم يعارضوا الفقرة التاسعة من البرنامج المتعلقة بحق الامم في تقرير مصيرها ، بقدر ما حاولوا « تطويرها » و« استكمالها » بفقرة مقتبسة من البرنامج النموي . فقد اقترح غولدبلات البوندي أن تضاف الى الفقرة التاسعة جملة عن « انشاء مؤسسات تضمن للامم حرية التطور الثقافي الكاملة » ، واقترح لير أن تضاف اليها جملة عن « حق الامم في تطور ثقافي حر » . ولكن غولدبلات نفسه دافع امام المؤتمر من الفقرة التاسعة قائلا : « لا يمكن الاعتراض مطلقا على حق حرية تقرير المصير . واذا ما ناضلت أمة من الامم في سبيل استقلالها ، فلا تجوز معارضتها . واذا كانت بولونيا لا تريد أن تعقد زواجا شرعيا مع روسيا ، فيجب أن يترك لها الامر كما قال الرفيق بليخانوف . وفي هذه الحدود أنا اوافق على وجهة النظر هذه » . وتلاه لير على المنصة ليؤكد أنه « اذا كانت إحدى القوميات لا تستطيع ان تحيا في حدود روسيا ، فإن الحزب لن يضع العقبات امامها » .

ومهما يكن من امر فقد أقر المؤتمر الثاني الفقرة التاسعة دونما تعديل ، إذ لم يحظ اقتراح غولدبلات بأكثر من ثلاثة اصوات عواقب اقتراح لير بأكثر من أربعة اصوات . ولم يعتبر البوند هذا الاقتراع هزيمة له ، لانه كان يعد « قنيلته » للجولة الثالثة التي سيجري فيها بحث المسألة التنظيمية (اقرار النظام الداخلي للحزب وتحديد مكانة البوند فيه) . والحق أنه في تلك الجولة الثالثة على وجه التحديد مني الاتجاه الايسكري بأول هزيمة منكرة له في المؤتمر ، وذلك عند التصويت على البند الأول من النظام الداخلي للحزب بصدد تعريف العضوية الحزبية . ولا يتسع المجال هنا للدخول في تفاصيل الخلاف بين لينين ومارتوف حول تعريف عضو الحزب ، والمهم أن الايسكريين انقسموا على أنفسهم ، وان الغلبة كانت للمارتوفيين ، وان المندوبين البونديين الخمسة صوتوا ضد اقتراح لينين وتحالفوا مع مارتوف . وقد وصف لينين هذا التحالف فيما بعد بأنه ادهى خطر ظهر في المؤتمر على مستقبل الحزب وبأن الايسكريين اضطروا ازاءه الى « حشو بنادقهم بكمية مزدوجة من البارود » لمواجهة خصومهم .

وبعد الانتهاء من اقرار النظام الداخلي للحزب انتقل المؤتمر الى بحث مسألة مكانة البوند في الحزب . وطلب البوند من المؤتمران يعترف به ممثلا أوحد للبروليتاريا اليهودية . ولكن المؤتمر رفض هذا المطلب بغالبية ساحقة ، وصوت المارتوفيون انفسهم ضده . ولم يكن امتناع المارتوفيين عن التصويت الى جانب اقتراح البونديين دليلا على وهن التحالف بينهم بقدر ما كان برهانا على أن مطلب البوند باحتكار تمثيل البروليتاريا اليهودية هو مطلب مستحيل لا يستطيع تأييده حتى اصداقواهم ، ولا سيما بعد ان كان المؤتمر قد رفض بالإجماع مبدأ الاتحادية القومي في التنظيم .

والواقع أن البوند كان قد أصبح سيد الموقف في المؤتمر . فقد

البروليتاريا اليهودية بالتفصيل على قرار المؤتمر هذا ، وبصورة أعم على موقف الاشتراكية - الديمقراطية الروسية من كل حركة قومية » . (١)

ولكن لينين امتنع ، لسبب ما ، عن تقديم مشروعه هذا . ومهما يكن من أمر ، فقد أدى انسحاب البوند الى تبديل موازين القوى داخل المؤتمر . فبعد أن كانت الغالبية الى جانب مارتوف وجماعته (المناشفة فيما بعد) أمست الى جانب لينين واليسكريين . وتجلي هذا الانقلاب عند انتخاب الاجهزة القيادية في الحزب اذ فاز فيها اليسكريون بحصة الاسد . ومن هنا أطلق عليهم اسم « المناشفة » (الغالبية) (البلاشفة) ، وأطلق على خصومهم اسم « المناشفة » (اصحاب الاقلية) . وقد اعترف لينين فيما بعد بهذا التبدل الذي أحدثه انسحاب البوند وقال في رسالة منه الى بائعة الكتب التقدمية كالميكوفا في مطلع أيلول ١٩٠٣ بان المارتوفيين كانوا سيهزمون اليسكريين « لولا انسحاب البوند » . (٢)

وبديهي ان المناظرة مع البوند لم تنته بانسحابه من الحزب ، ولا بانتهاء المؤتمر الثاني . بل على العكس من ذلك تماما . وقد كان كل اعتقاد لينين أن « رحيل البوند خير » اذ ما أخذ الخلاف معه طابعا علنيا ، ولم يبق سرا راقدا في محاضر جلسات المؤتمر الثاني . ولهذا لم يأل لينين جهدا طوال الشهور المتبقية من عام ١٩٠٣ وطوال عام ١٩٠٤ في اذاعة الخلاف بين الحزب والبوند على أوسع نطاق ممكن . ولقد كان وضع الحزب التنظيمي هو هدفه الرئيسي ، لأن كما في البداية ، من وراء متابعة المناظرة . وكان أقصى ما يصبو اليه هو الارتفاع بتنظيم حزب عمال روسيا الى نفس مستوى تنظيم البوند . ولم يكن يكتم ذلك : « لنحاول أن نقارن حزينا بالبوند على سبيل المثال . فمما لا شك فيه أن مضمون عمل حزينا افئسى وأشمل وأوسع وأعمق بما لا يقاس من مضمون عمل البوند ، وان نطاقه النظري أوسع ، وأن برنامجه أكثر تطورا ، وأن تأثيره على الجماهير العمالية أشمل وأعمق ، وأن دعايته وتحريضه أكثر تنوعا ..

أما « الشكل » ؟ ان « شكل » عملنا متأخر عن شكل عمل البوند الى حد يفق العين ويبعث حمرة الخجل .. ان نقطة ضعفنا تكمن في تأخر تنظيم عملنا عن مضمونه . والشكل البدائي والهسي لا يسمح بتطوير المضمون تطورا جديا ، ويسبب جمودا منكرا ، يؤدي الى تذبذب القوى ، ويجعل الافعال غير متناسبة مع الاقوال » (٣) . وهذا على وجه التحديد ما كان يثير سخطه على البوند . فقد كان البوند يريد ، على طريقة نقابات عمال المناجم الانكليز ، ان يستغل تقدمه التنظيمي ليضع المزيد من العراقيل في وجه تقدم سائر الاشتراكيين - الديمقراطيين الروس . يريد ان يستغل « نقاط ضعف » التنظيم الروسي ليعمق انفصاله عنه وليحطمه الى الابد . (٤) وكانت خطة البوند هذه تتلخص في كلمة واحدة : الاتحادية . ففي الوقت الذي كان فيه البوند منظما على اساس مركزي ، كان يبذل كل ما في وسعه لرفع الحزب الروسي الى تبني شكل تنظيمي رخو ، اتحادي ، لامركزي ، كقيل بان يمزقه الى مجموعات صغيرة ، ضعيفة ، يصفها البوند بأنها « قومية » . ومن هنا كان تركيز لينين الشديد على نزع البوند القومية باعتبارها النزعة التي ستجهز حتما على الحزب الاشتراكي - الديمقراطي فيما اذا انتقلت عداها اليه . وما اسهل الاتزاق في مستنقع النزعة القومية ، ولكن ما اصعب الخروج منه . فمن يقل « الف » لا بد ان يقول

(١) : م . ك - ٦ م - ص ٥٠٢ .

(٢) : م . ك - ٣٤ م - ص ١٦٤ .

(٣) : « خطوة الى الامام ، خطوتان الى الوراء » م . ك - ٧ م -

ص ٤٠٨ - ٤٠٩ .

(٤) « آخر كلمات نزع البوند القومية » م . ك - ٦ م -

ص ٥٤٣ .

كانت أصوات اليسكريين والمارتوفيين شبه متساوية ، وكانت أصوات البونديين الخمسة قادرة على تقرير مصير كل اقتراح . ولهذا فقد فوجئ المؤتمر مفاجأة حقيقية عندما قرر مندوبو البوند الانسحاب من المؤتمر معلنين ان حزبهم قد قطع صلته بحزب عمال روسيا بعد ان رفض المؤتمر الاعتراف بالبوند ممثلا أوحد للبروليتاريا اليهودية . وقد فوجئ اليسكريون أكثر من غيرهم لانهم كانوا على يقين من أن البوند كان يستطيع الحصول على ما يشاء من التنازلات المقولة من جانب المارتوفيين بحكم الأهمية الحاسمة لأصوات مندوبيه الخمسة . ولم يجد لينين تفسيراً لقرار البوند المفاجيء بالانسحاب سوى أن مندوبيه كانت لديهم اوامر مسبقة بهذا الخصوص . والواقع ان الانسحاب كان قد تقرر في مؤتمر البوند الخامس .

وبادر لينين من فوره الى اعداد مشروع قرار بادانة انسحاب البوند . وقد جاء في هذا المشروع ما يلي : « ان المؤتمر يرى ان البوند قد ترك حزب عمال روسيا الاشتراكي - الديمقراطي على اثر رفض مندوبي البوند الامتثال لقرار غالبية المؤتمر . ويعلم المؤتمر عن اسفه العميق لهذه البادرة التي تشكل في رايه غلظة سياسية فادحة يقترفها القادة الحاليون ل « الاتحاد العمالي اليهودي » ، وستلحق نتائجها الضرر حتما بمصالح البروليتاريا اليهودية والحركة العاملة . ويقدر المؤتمر ان الحجج التي تدرع بها مندوبو البوند لتبرير فعلتهم من وجهة النظر العملية ترد الى هواجس وشكوك ليس لها ما يبررها بصدد صدق وثبات الفئات الاشتراكية - الديمقراطية للاشتراكيين - الديمقراطيين الروس ، وتمثل من وجهة النظر النظرية نتيجة مؤسفة لتسرب النزعة القومية الى الحركة الاشتراكية - الديمقراطية البوندية . ويعبر المؤتمر عن رغبته وقناعاته العميقة في ضرورة الوحدة الكاملة الوثيقة بين الحركة العاملة اليهودية والحركة العاملة الروسية في روسيا على صعيد المبادئ وعلى صعيد التنظيم ، ويقرر اتخاذ جميع التدابير لاطلاع

مكتبات انطوان

فرع شارع الامير بشير

تجدون فيها تشكيلة ضخمة

من الكتب السياسية والاقتصادية والعقائدية

وكمية كبيرة من القصص على

جميع انواعها وكذلك جميع الكتب المدرسية

« باء » .. وصولا الى « الباء » ! وهذا هو شأن البوند : فهو لم يكتف بتبني مبدأ التنظيم الاتحادي على اساس قومي ، ولم يكتف بالمطالبة باحتكار تمثيل البروليتاريا اليهودية ، بل هاهو أيضا يسفر بانسحابه من الحزب عن نياته الانفصالية الانزالية ، يسفر عن رغبته في احاطة قوميته وحرركته بالمعاملة القومية بسور صيني، بل في بناء أسوار صينية في كل مدينة وفي كل بلدة وفي كل قرية لفصل العمال اليهود عن غير اليهود . ولا يخجل البوند بعد هذا كله من الحديث عن قناعاته « العميقة » بأن النضال المشترك لعمال جميع القوميات هو وحده الكفيل بخلق الشروط المواتمة للنضال ضد اللاسامية وضد سياسة المجازر الطائفية ، متناسيا أن نزعته القومية الضيقة لم تمزق وحدة ذلك النضال فحسب ، بل كرس أيضا ذلك التمزق تكريسا قانونيا وتنظيما من خلال مقررات مؤتمر البوند الخامس المشؤومة. (1)

« الامة اليهودية »

ان مرر البوند في المطالبة بمبدأ الاتحادية القومية يقوم كله على اساس فكرة وجود امة أو قومية يهودية . وصحح أن البوند لم يعلن عن تبنيه هذه الفكرة الا في مؤتمره الرابع ، ولكنه كان يؤمن بها في الحقيقة منذ البداية ، منذ يوم تاسيسه ، منذ أن أطلق على نفسه في عام 1897 اسم « الاتحاد العمالي اليهودي » . فالبوند يعتبر نفسه حزبا اشتراكيا - ديموقراطيا ، وهذا معناه انه لا ينطلق في تنظيمه من اعتبارات دينية . وما دام قد وصف نفسه بأنه اتحاد عمالي يهودي ، فإن هذا الوصف لا يدع مجالاً للشك في ان اليهودية هي بالنسبة اليه قومية لا دين . ولكن هل يمكن القبول ، من وجهة النظر الاشتراكية - الديموقراطية ، بفكرة وجود امة يهودية؟

كان لا بد للينين ان يجب عاجلا أو آجلا على هذا السؤال بمجرد انه اختار ان يدخل في مناظرة واسعة مع البوند . والواقع ان هناك نصوصا لينينية كثيرة ملتبسة تحمل على الاعتقاد بأن لينين كان يعتبر اليهود قومية بله امة . فلقد أكد دوما في مناقشته مع البوند ان هذا انما ينطلق من وجهة نظر قومية ويريد ان يكرس انفصال القوميات . بل ان تعبير « القومية اليهودية » و« الامة اليهودية » ورد أكثر من مرة على لسانه أو بقلمه وفي أكثر من مناسبة . فلقد ورد على سبيل المثال في المقال الذي ذكرناه لتونا « آخر كلمات نزعلة البوند القومية » ، وورد في ندائه الموجه الى العمال اليهود في ايار 1905 اذ قال بالحرف الواحد : « ان العمال اليهود يعانون من اضطهاد اقتصادي وسياسي في آن واحد ، اضطهاد ثقيل الوطأة عليهم بوجه خاص باعتبارهم قومية محرومة من كل الحقوق » . (2) ولكن هذه التعابير لا يمكن أن تكون باعثة على الالتباس الا اذا فصلت عن سياقها ، وذلك لسببين :

أولا - لان لينين لو اعترف فعلا لليهود بأنهم قومية وامة ، لكان وجد نفسه مضطرا في خانة المطاف الى الاعتراف للبوند بحق تشكيل حزب متماز .

ثانيا - لان لينين أوضح موقفه من نظرية « الامة اليهودية » في عدة مناسبات نفى فيها بشكل قاطع لا يقبل تاويلا او التباسا فكرة وجود امة يهودية .

ان المرة الأولى التي دخل فيها لينين في نقاش حول نظرية « الامة اليهودية » كانت في تشرين الاول 1903 ، وذلك عندما وصف فكرة وجود امة يهودية بأنها فكرة صهيونية . ومنعا لكل التباس يضع لفظة « الامة » بين أهلة اربعة توكيدا منه بأن « الامة اليهودية »

انما هي فكرة ، نظرية ، لا حقيقة واقعة . (1)

وفي مقال « مكانة البوندي الحزب » المنشور في « الايسكرا » في 22 تشرين الاول 1902 عاد لينين يؤكد الاطروحة نفسها ، اطروحة أن « فكرة الامة اليهودية فكرة صهيونية » ، ويضيف هذه المرة بأنها أيضا فكرة « خاطئة تماما ورجعية في جوهرها » . ثم يستشهد بكارل كاوتسكي ، النظري الماركسي الاول في ذلك العهد ، الذي كان قد أكد على صفحات « الايسكرا » بالذات أن « اليهود قد كفوا عن ان يوجدوا كامة ، نظرا الى ان الامة لا معنى لها بدون أرض » . ويستشهد أيضا بمقال آخر كان قد نشره في نيوزايت « وأكد فيه ان المقومات الاساسية لكل قومية هي اللغة والارض . والحال ان اليهود ليس لهم لا لغة مشتركة ولا أرض مشتركة . ويستشهد كذلك بيهودي فرنسي هو الراديكالي الفريد ناكيه الذي كتب في ايلول 1903 في صحيفة « الجهورية الصغيرة » الناطقة بلسان الاشتراكيين الفرنسيين الملاحيين مقالا يرد فيه على برنار لازار ، احد الوجوه الصهيونية البارزة آنذاك ، وعلى ادوار دريمون ، احد زعماء الحركة اللاسامية البارزين أيضا ، ويقول فيه بالحرف الواحد ضد الصهيونيين واللاسامين في آن واحد : « اذا كان يحلو لبرنار لازار ان يعتبر نفسه مواطنا من شعب خاص ، فهذا شأنه . اما انا فأنني أصرح ، أنا الذي ولدت يهوديا ، أنني لا اعترف بقومية يهودية .. وليس لي من قومية غير القومية الفرنسية . . هل يشكل اليهود شعبا ؟ أنني أجيب ، وهذا بالرغم من أنهم شكلوا في الماضي شعبا زال منذ عهد بعيد ، جوابا قاطعا : كلا ! فالشعب يستلزم مقدما عدة شروط غير متوفرة هنا . لا بد له اولا من أرض يتطور عليها ، ولا بد له أيضا من لغة مشتركة ، في ايماننا هذه على الاقل بانتظار الاتحاد العالمي الذي سيوسع هذا الاساس . والحال ان اليهود لم يعد لهم من أرض ولا من لغة مشتركة . ولا اعتقد أنني أضيف شيئا جديدا اذا قلت ان برنار لازار ، مثله مثلي ، لا يعرف كلمة واحدة من العبرية ، وان الصهيونية ، اذا قبض لها النجاح ، ستواجه اكبر الحرج في التفاهم مع مشايعها في الاجزاء الاخرى من العالم .

والحقيقة أن فكرة « الامة اليهودية » هي من اختراع اللاسامين بقدر ما هي من اختراع الصهاينة ، من اختراع ادوار دريمون بقدر ما هي من اختراع برنار لازار ، من اختراع الحاقدين على يهود العالم ولهذا بقدر ما هي من اختراع الحاقدين من اليهود على العالم . ولهذا يناقش الفريد ناكيه في مقال واحد كلا من لازار ودريمون . ولهذا كان من الضروري في الوقت الذي استشهد فيه لينين بمناقشة ناكيه للازار ان يستشهد بمناقشته لدريمون :

« ان اليهود الالمان والفرنسيين متمايزون تماما عن اليهود البولونيين أو الروس . ثم ان صفاتهم الخاصة لا تحمهم البتة أي اثر من طابع قومي . واذا ما سمحنا لانفسنا بأن نزع مع دريمون ان اليهود يشكلون امة ، فان هذه الامة ستكون مصطنعة . والحق ان اليهودي الحديث هو نتاج الانتخاب المضاد للطبيعة الذي خضع له اسلافه طوال ثمانية عشر قرنا . »

وبعد هذا الاستشهاد المطول بناكيه ومن قبله بكاوتسكي، يضع لينين البونديين أمام الاحراج التالي: ما دامت اللغة والارض عاملي القومية الاساسيين ، وما دام يهود العالم يفتقرون الى هذين العنصرين ، فليس من خيار امام البونديين الا « ان ينشؤوا فكرة قومية خاصة لليهود الروس تكون لغتها الادشيه وارضها منطقة « الاقامة » . (2) - التتمة على الصفحة - 61 -

(1) : « حد اقصى من الفحة وحد ادنى من المنطق » - م . ك

٧٢ - ص ٦٠ .

(2) : هي المنطقة التي ما كان يحق ليهود روسيا القيصرية

تجاوزها في سكنهاهم .

(1) : المصدر نفسه - ص ٥٤٥ .

(2) : م . م . - ٨ م - ص الة .

لينين والمسألة اليهودية

- تمة المنشور على الصفحة - ١٠ -

وطبيعي أن القائلين بفكرة وجود أمة يهودية كانوا يعلمون أن قوميتهم الزعومة هذه تفتقر إلى عاملي الأرض واللغة الأساسيين في تكوين كل قومية . ولهذا حاولوا أن يتحدثوا نظرية جديدة في تكوين الأمم تنطلق من النظرة العرقية .

فاليهود شعب واحد لأنهم من أصل واحد ولأن لهم « سمات قومية واحدة » . وإذا كان ناكيه قد نفى وجود « سمات قومية » مشتركة بين يهود ألمانيا وفرنسا وبولونيا وروسيا على سبيل المثال ، فإن لينين يستشهد بكل من كاوتسكي ورينان لينفي وجود « سمات عرقية » مشتركة بين يهود العالم ، ويمهد لاستشهاده بقوله « أن العلم الحديث لا ينفي الخصوصيات القومية لليهود فحسب ، بل ينفي أيضا الخصوصيات العرقية في الوقت الذي يضع فيه في المقام الأول خصوصيات تاريخ اليهود » . وبالفعل أن كلام كاوتسكي ورينان يبرزان خصوصية التاريخ اليهودي في الوقت الذي ينفيان فيه الخصائص العرقية .

يقول كاوتسكي : « هل السمات الخاصة باليهود نابعة من طابعهم العرقي ؟ » ، ويجب بنفسه على هذا السؤال مؤكدا أن مفهوم العرق بالذات مفهوم غامض ولا يفضي إلى نتيجة : « ليس بنا البنية من حاجة للجوء إلى مفهوم العرق الذي لا يقدم البتة من جواب حقيقي والذي يثير بالأحرى أسئلة جديدة . والحقيقة يكفينا أن نتتبع تاريخ الشعب اليهودي حتى تتوضح لنا أسباب طابعه » .

ويقول أرنست رينان ، وهو أحد الاختصاصيين اللامعين في تاريخ اليهود ، في دراسته « اليهودية كعرق ودين » : « أن هيئة الوجه الخاصة وطرائق المعيشة لدى اليهود هي نتيجة الضرورات الاقتصادية التي أثقلت بوطانها عليهم طوال قرون أكثر منها ظاهرة عرقية » .

بعدها النفي الإثنولوجي لفكرة « الأمة اليهودية » ينتقل لينين إلى تفنيدها سياسيا ، مؤكدا أن مدلول هذه الفكرة رجعي محض . فالقول بوجود أمة يهودية هو بمثابة حفص لليهود العالم على عدم التمثل والانصهار في المجتمع الحديث . والحال أن هذا التمثل هو واحدة من أبرز علامات التطور والتقدم الاجتماعيين في العصر الحديث . فمع سقوط قلاع الاقطاعية في أوروبا وتطور الحرية السياسية سقطت الحواجز القانونية الاجتماعية والدينية التي كانت تعزل اليهود عن المجتمع وتقيم بينهم وبين السكان الذين يعيشون بين ظهرانيهم أسوارا صينية . ولقد تجاوب اليهود مع صيرورة الانصهار التقدمية هذه ، وراحوا يتخلون شيئا فشيئا عن اللغة الإدشبية (التي هي رمز عزلتهم) ليتبنوا لغة الشعوب التي يحيون بينها . وكل محاولة لوقف هذا التطور أو لعكسه هي بالضرورة محاولة رجعية تستهدف تأييد اشبع مظاهر العصر الاقطاعي .

ودعاة فكرة وجود أمة يهودية هم من هذا الطراز الرجعي لأن « القومية اليهودية » لا يمكن أن تكون شيئا آخر غير دعوة اليهود إلى أن يعيشوا كما كانوا يعيشون في القرون الوسطى . ومن هنا يمكن اعتبار الصهاينة واللاسامين على حد سواء « رفاقا في النضال » إذ أن هدفهم في خاتمة المطاف واحد : بعث « الحي اليهودي » (الفيتو) وروح الحي اليهودي . والفارق الوحيد بينهم هو أن اللاسامين يريدون أن يفرضوا على اليهود السكنى في ذلك الحي فرضا بينما يريد الصهاينة أن تكون السكنى فيه طوعية وبملاء الإرادة .

ذلك هو المعنى المفصل لقول لينين بأن المسألة اليهودية ليس لها سوى طرح واحد لا غير : أما تمثل وانصهار وأما خصوصية

وانزال . والامتراكيون ، الديموقراطيون ، أي التقدميون بشكل عام ، لا يمكن إلا أن يكونوا من انصار التمثل في المسألة اليهودية لأن سياق هذا التمثل هو التطور التاريخي التقدمي (سقوط الاقطاعية وتطور الحرية السياسية) . وبالمقابل فإن الخصوصية اليهودية لا يمكن أن تكون شيئا آخر غير الرجعي إلى الوراء سواء أكانت هذه الخصوصية مفروضة من الخارج أم مرادة من الداخل . يقول لينين : « ان فكرة (قومية) يهودية هي فكرة ذات طابع رجعي واضح لدى انصارها المنطقيين مع انفسهم (الصهاينة) ، بل أيضا لدى أولئك الذين يحاولون التوفيق بينها وبين افكار الاشتراكية - الديموقراطية (البونديين) . ان فكرة وجود قومية يهودية تناقض مصالح البروليتاريا اليهودية إذ تخلق لديها ، علنا أو ضمنا ، حالة عداء للتمثل ، حالة نفسية هي حالة الفيتو » .

وما دامت المسألة اليهودية ليس لها سوى طرح واحد ، فلا يمكن أن يكون لها إلا حل واحد أيضا : وضع حد للخصوصية اليهودية بأسرع ما يمكن . ديموقراطيا ، أي عن طريق الفاء كل مظاهر التمييز العنصري أو الديني بحق اليهود ، وثوريا ، أي عن طريق مشاركة البروليتاريا اليهودية مع بروليتاريا الشعب الذي تنتمي إليه في النضال الاشتراكي . وهذا معناه أن حل المسألة اليهودية يجب أن يكون من صنع اليهود وغير اليهود معا . والجزم الخطير الذي يقترفه البوند بتبنيه للفكرة الصهيونية عن « الأمة اليهودية » هو أنه يغذي الخصوصية اليهودية بدلا من أن يعمل على ازالتها ، متناسيا أن العداء تجاه الطوائف المنوذة من السكان لا يمكن أن يزول إلا متى كفت هذه الطوائف عن أن تكون جسدا غربيا في الأمة . ذلك هو « الحل الوحيد الممكن للمسألة اليهودية وعلينا أن نساند كل ما يساهم في وضع حد للخصوصية اليهودية » (١)

وبالمناسبة كم يبدو لنا تحليل سارتر في كتابه « تأملات حول المسألة اليهودية » سكونيا ، أحادي البعد ، بالمقارنة مع تحليل لينين الديالكتيكي وأن المقنضب . ففي حين يؤكد سارتر أن اليهودي يهودي لأنه يرى نفسه في أنظار الآخرين يهوديا ، رأينا لينين يؤكد أيضا أن اليهودي يلعب لعبة اللاسامين عندما يصدق الأسطورة الصهيونية حول أودية يهوديته . والحق أن لينين يحاول تفسير الخصوصية اليهودية بينما يبرها سارتر . ويون شاسع بين التبرير والتفسير . فالتبرير دعوة إلى استمرار تلك الخصوصية بينما التفسير دعوة أي تجاوزها .

ولبت البوند اكتفى بالتعلق بأذيال الثرثرة الصهيونية حول الخصوصية اليهودية ، بل هو يريد أيضا أن ينقل داء الخصوصية الخبيث إلى أوساط البروليتاريا والاشتراكية - الديموقراطية بالذات . ولئن قصر الصهاينة الخصوصية على « الأمة اليهودية » ، فإن البوند يريد أن يشمل بها أيضا « البروليتاريا اليهودية » . ومن هنا كان تركيزه على ضرورة تنظيم اشتراكي - ديموقراطي « قومي » مستقل للعمال اليهود وعلى أنه هو التنظيم الذي تجسدت فيه هذه الضرورة . وهذه الضرورة هي في رأيه تاريخية . فالناريخ ومسيرته الموضوعية العنمية هما اللذان فرضا على مختلف منظمات البروليتاريا اليهودية أن تندمج في تنظيم واحد هو البوند متخضية كل الحواجز التي كانت تحول دون هذا الاندماج .

وأفصح دليل على أن التاريخ هو الذي اختار البوند ممثلا أوحد للبروليتاريا اليهودية أن المنظمات الاشتراكية - الديموقراطية الأخرى (غير البوندية) عجزت عن القيام بدور فعال في أوساط البروليتاريا اليهودية . ولكن هل التاريخ هو حقا إلى جانب البوند في زعمه هذا ؟ أو لا يشبه البونديون من هذه الزاوية أتباع المدرسة التاريخية الذين قال عنهم ماركس بسخرية ما بعدها سخرية أنهم على

(١) : « مكانة البوند في الحزب » - م.ك - ٧٣ - ص ٩٧ -

والاشتراكية - الديمقراطية منذ ان اختاروا ان يكونوا سدة معد
الخصوصية !

عودة منشفية للبوند

قلنا ان لينين لم يطرح المسألة اليهودية على صعيد النقاش
الا من وجهة نظر تنظيم الحزب الاشتراكي - الديمقراطي .
ومناظرته مع البوند لم تحتد الا لحظة شكل البوند خطرا جدبا على
تكوين الحزب . ومع الانقسام الذي وقع في صفوف الاشتراكيين -
الديموقراطيين بين البلاشفة والمناشفة انتقل مركز الثقل في
المنظرة التنظيمية من موضوع المركزية والاتحادية الى موضوع المركزية
واللامركزية ، الانضباط والفردية ، التنظيم والعفوية . وبالرغم من أن
البونديين تحالفوا مع المناشفة وايدوهم في المواقف الرئيسية ،
فانهم ما عادوا مصدر الخطر الرئيسي على تكوين الحزب . فهذا
الخطر قد تمثل ، اعتبارا من المؤتمر الثاني ، في المناشفة .

وبالفعل ، وبالرغم من أن الغالبية كانت بجانب البلاشفة في
البداية ، استطاع الاقليون اي المناشفة ان يفرضوا سيطرتهم
سريعا على معظم الاجهزة القيادية فسي الحزب بما في ذلك
(الايسك) . ولقد كان المقال الذي كتبه لينين تفنيديا لفكرة وجود
أمة يهودية هو آخر مقال يكتبه في الايسك قبل وقوعها تحت
سيطرة المناشفة . واعتبارا من ذلك التاريخ وحتى ايار ١٩١٣ ، أي
طوال عشرة أعوام تقريبا ، لن يرد ذكر للمسألة اليهودية كمسألة
قائمة في ذاتها في كتابات لينين : على ذكر البوند في كتاباته ابان
تلك الفترة ، فانه لن يفعل ذلك الا من وجهة نظر الصراع مع
المناشفة . ومن قبيل ذلك نداؤه « الى العمال اليهود » في
حزيران ١٩٠٥ . ففي نيسان من ذلك العام عقد البلاشفة في لندن
مؤتمرا سمي بالمؤتمر الثالث لحزب عمال روسيا ، ولكن هذه التسمية
لم تكن دقيقة في الواقع لان المناشفة قاطعوا المؤتمر وعقدوا
مؤتمرا خاصا بهم في الفترة نفسها في جنيف . وقد حضر المؤتمر
الباشفي ممثلو عدد من المنظمات الاشتراكية - الديمقراطية القومية
في الامبراطورية الروسية وهذا ما حدا بالمؤتمر الى اتخاذ قرار بنشر
مقرراته باللغة الاذشبية . وقد تولى لينين بنفسه كتابة مقدمة
الطبعة الاذشبية للمقررات . وفي هذه المقدمة اكد لينين من جديد
ضرورة تنظيم مركزي موحد لعمال جميع القوميات ، وأن وحدة
التنظيم هذه هي خير ضمان للنجاح في النضال ضد الاوتوقراطية
الروسية التي تضطهد تلك القوميات ، وأنه كلما ازداد هذا
الاضطهاد ضراوة وقسوة ازدادت الحاجة الى تنظيم موحد ، ولا سيما
بالنسبة الى العمال اليهود لانهم يعانون من الاضطهاد اكثر ممايعاناه
غيرهم ، وأن البوند بتفديته الخصوصية اليهودية وتاجيجها اوارها
انما يلعب لعبة الحكومة القيصرية التي تحاول جاهدة بث بذور
التفرقة والشقاق بين القوميات ، وأن قرار البوند بالانسحاب من
الحزب كان غلطة سياسية فادحة ناجمة عن رغبته في احتكار
تمثيل البروليتاريا اليهودية ، وأن الامل مفعود على البروليتاريا
اليهودية لتصحيح هذه الغلطة . ثم اختتم لينين نداؤه بالتأكيد
على ان « امتحانات رهية » تنتظر الثوريين في روسيا ، وأن حزبا
اشتراكيا - ديموقراطيا موحدًا فعلا هو وحده القادر على أن يقود
بروليتاري القوميات كافة الى الحرية . (١)

استعداد لعبادة السوط لجرد ان السوط تاريخي ؟ فصحيح ان
خصوصية البوند تكونت عبر التاريخ ، ولكن ليس المسألة ومحورها
هو : هل المطلوب تكريس خصوصية البوند التاريخية هذه عن طريق
الاعتراف به ممثلا أوحد للبروليتاريا اليهودية ام المطلوب على العكس
وضع حد لها عن طريق سير البوند مع مجموع الحزب الاشتراكي -
الديموقراطي والاندماج به ، اصف الى ذلك ان البوند مسؤول هو
نفسه عن خصوصيته التي لا تعود بالتالي مجرد ظاهرة تاريخية ،
موضوعية لا دخل للارادة البشرية فيها . فعندما يقول البوند ان
المنظمات الاخرى عجزت عن القيام بعمل فعال في اوساط البروليتاريا
اليهودية ، فمن الواجب ان ننسى انه وضع هو نفسه العراقيل امام
مثل ذلك العمل وان تبعة الفشل الزعوم ذلك تقع عليه جزئيا . ولئن
كان البوند قد تطور بمعزل عن سائر الحزب الاشتراكي -
الديموقراطي ، فمن الواجب ايضا ان ننسى ان البوند هو الذي
عمل بملء ارادته واختياره على ضعف الروابط - الواهنة اصلا -
القائمة بينه وبين سائر الحزب . وان ضعف هذه الروابط
هو اليوم واقعة تاريخية لا جدال فيها ، وذلك « بفضل »
سياسة البوند بالذات . ولكن ما الواجب استنتاجه من هذه
الواقعة التاريخية ؟ أمن واجب المرء ، لجرد أنها تاريخية ، ان يختر
امامها ساجدا متعبدا ؟ ان يحولها الى مبدأ ؟ ان يكرسها بموقف
تبعي ذليل ؟ والحقيقة ان هذا بالضبط ما يريده البوند : ان يستخلص
مبدأ تنظيميا من تاريخ سنوات عدة من تفكك الحزب واختلاله
التنظيمي ، وبكلمة واحدة ، ان يعبد السوط لانه تاريخي !

وأي مبرر يتبقى بصد هذا كله ليتلبس البوند اهاب الداعي
الى الوحدة ولو على أساس اتحادي ؟ هنا أيضا يختلق البوند نظرية
غريبة ، عن الخصوصية ويقول ان البوند لا يتدخل كبوند الا في
المسائل الخاصة بالبروليتاريا اليهودية ، اما في المسائل العامة
فانه يفقد سيماءه الخاصة ويصبح مجرد فرع من فروع حزب
عمال روسيا . بيد ان ما ينسأه البوند في دعواه هذه ان تلك
(الثنائية) ليست وفقا عليه « كممثل أوحد للبروليتاريا اليهودية »
ولا وفقا على البروليتاريا اليهودية . فتلك الثنائية تتجلى في وضع
كل عامل اشتراكي - ديموقراطي : ففي المسائل الخاصة يتدخل هذا
العامل بوصفه ممثلا لهنة محددة وعضوا في أمة محددة ومواطن في
اقليم محدد ، أما في المسائل العامة فانه يفقد « سيماءه الخاصة »
وتتحد هويته بهوية أي عامل اشتراكي - ديموقراطي آخر . وليست
المعارضة التي يقيمها البوند بين المسائل الخاصة والمسائل العامة
الا عينة رائجة عن المنطق البوندي ! فهو يريد ان يعارض لون
بعض التفاحات ونكهتها وشذاها بعدد التفاحات
الاخرى ، متناسيا على وجه التحديد ان كل تفاحة ،
لا بعض التفاحات الخاصة فحسب، لها لونها ونكهتها وشذاها الخاص،
وان هذه الخصوصية العامة ، غير المنفردة ، التي ليست وفقا على
فئة « مختارة » دون أخرى ، هي التي توجب ان يقوم تنظيم الحزب
الاشتراكي - الديمقراطي على أساس من المركزية والاستقلال الذاتي
في آن واحد . الاستقلال الذاتي للتمكن من صياغة المطالب الخاصة
والتعبير عنها ، والمركزية لتعميم المطالب الخاصة في شكل برنامج
مشترك لجميع الاشتراكيين - الديموقراطيين دون استثناء . (١)
وبعبارة أخرى ، ان ما ينفيه الاشتراكيون - الديموقراطيون ليس
الخصوصية وانما النزعة الخصوصية .

وهنا تكمن نقطة خلافهم الجوهرية مع البونديين . فهؤلاء الاخرون
يريدون تكريس سلسلة لامتناهية من الخصوصيات « خصوصية »
(الامة اليهودية) وخصوصية البروليتاريا « اليهودية » وخصوصية
البوند نفسه . واذا كانت الشمولية هي أحد المقاييس الاساسية
لثورية ، فمن الممكن ان نتصور كم حاد البونديون عن طريق الثورية

١ - « الى العمال اليهود » - م . ك - م - ٨ - ص ٥٠١ - ٥٠٤ .

(١) : المصدر نفسه - ص ٩٤ - ٩٧ .

المنافسة السياسية اثناء الثورة الروسية الاولى . ولئن كان المجال لا يتسع هنا لتابعة المناظرات السياسية التسي دارت بين البلاشفة والبونديين بصدد استراتيجية الثورة وتكتيكها ، فمن المفيد ان نثبت خلاصة تقييم لينين السياسي للبوند . وهذه بعض العينات :

– ان سياسة البوند « تعبر على اكمل وجه عن الروح البورجوازية الصغيرة في صفوف الاشتراكية – الديمقراطية ، بكسل سطحيتها وحلولها الوسط وافكارها التهويمية وارجيفها ووضاعتها (وهي الصفات التي لازمت دائما البوند الذي لعب . . . وما يزال يلعب دور الطفيلسي الايديولوجي) (١) » .

– « اذا كان البوند ينفذ سمومه ضدنا الآن لاننا قدمنا له مرآة ، فليس لنا من رد عليه سوى تكديره بالمثل السائر : « لا تلم المرأة اذا ما . . . » (٢) » .

– « سوف نعطي البوند فلقة ان يساها بسرعة . »
ان هؤلاء البونديين عديمو الفهم ومتحذلقون وحمقى وبلهاء السى درجة تخرجك عن طورك » (٣) .

وصحيح ان هذه اللهجة اللاذعة خفت حدتها بعد اندماج البوند بالحزب ، ولكن الوجه المنشفي للبوند لم يحل ولم يتبدل . كذلك فان البوند بقي محتفظا بتنظيمه المستقل بالرغم من اندماجه بالحزب شكليا . ومن هنا كان لا بد من فصل البونديين من الحزب مع سائر المنافشة عندما قرر البلاشفة في اجتماعهم في مدينة براغ في مطلع عام ١٩١٢ ان يضعوا حدا لهزلة « الوحدة » وان يعلنوا انفسهم حزبا متمايزا . وهكذا كان . واتخذ اجتماع براغ التاريخي ، فيما اخذ من قرارات ، قرارا بادانة العلاقات التي قامت بين الحزب وبين البونديين وسائر المنظمات الاشتراكية – الديمقراطية « القومية » بعد مؤتمر التوحيد بوصفها « علاقات اتحادية من اسوأ نمط » . ومع ولادة الحزب البلشفي كتنظيم مستقل انطوت صفحة في تاريخ العلاقات مع البوند لتبدأ صفحة جديدة .

حول الاستقلال الذاتي الثقافي لليهود

تقول صحيفة جديدة لان لينين لم يول المسألة اليهودية اهتماما حتى الآن الا باعتبارها مسألة تنظيمية . ومما يؤكد هذا الطرح التنظيمي للمسألة اليهودية ان لينين لم يدخل فسي مناظرة بصدها الا مع البونديين . ولو كان مهتما بها من غير وجهة نظر تنظيم الحزب ، لكان يفترض فيه ان يدخل في مناظرة مع غير البونديين ايضا (مثل الحزب الصهيوني – الاشتراكي والحزب العمالي الاشتراكي اليهودي) ، ولكنه لم يفعل لانه لم يكن له من خصوم يهود فسي المسألة التنظيمية غير البونديين .

ولكن ها هو البوند الآن قد هجر صفوف الاشتراكيين – الديمقراطيون (البلاشفة) نهائيا . وعلى هذا فان المناظرة معه حول المسألة اليهودية ستلتبس طابعا جديدا : انها ستصبح جزءا من المناظرة بصدد المسألة القومية كما انطرح في عامي ١٩١٣ – ١٩١٤ بين لينين والبلاشفة من جهة وبين العدميين القوميين من انصار روزا لوكسمبورغ والاشتراكيين الشوفينيين من اتباع المدرسة الماركسية النمساوية من جهة اخرى ، أي بتعبير آخر جزءا من المناظرة بين مؤيدي شعار حق الامم في تقرير مصيرها وبين معارضيه ومشوهيه .

لقد رأينا ان اخطر محاولة لتشويه مبدأ حق الامم فسي تقرير مصيرها صدرت عن المدرسة الماركسية النمساوية التي حاولت استبداله بمبدأ الاستقلال الذاتي القومي الثقافي . ورأينا ايضا ان البوند تبنى هذا المبدأ بصورة متسرعة في مؤتمره الرابع في عام ١٩٠١ . وفي

وانحق ان هذه الثورة لم يكتب لها النجاح لعاملين اثنين : عفويتها وعدم توقيتها في عموم أرجاء روسيا في آن واحد . وهذا ما أشعر الاشتراكيين – الديمقراطيين على مختلف اتجاهاتهم وتنظيماتهم بضرورة توحيد الحزب . وهكذا انعقد في ستوكهولم في نيسان ١٩٠٦ المؤتمر الرابع للحزب الذي اطلق عليه اسم مؤتمر التوحيد . وهذا الاسم لم يطلق عليه لانه حقق وحدة البلاشفة والمنافشة فحسب ، بل ايضا لان ممثلي عدة منظمات اشتراكية – ديمقراطية قومية حضروا المؤتمر وشاركوا في اعماله وقرروا الاندماج بالحزب (البولونيون والليتونيون والبونديون) . والحقيقة ان هذه المبادرة (دعوة « القوميين » الى الاندماج) جاءت من البلاشفة الذين لم يحجموا عن تقديم تنازلات معينة للقوميين بهدف الاندماج . وقد وصلت هذه التنازلات الى حد الاقرار بمبدأ التمثيل النسبي للقوميين في قيادات الحزب المحلية والاقليمية والمركزية شريطة تخلي القوميين عن مبدأ الاتحادية في التنظيم . وبخلاف ما كان متوقفا ابدى المنافشة تحفظا في قبول البونديين ، بينما صمقت البلاشفة باتجاه قبولهم . واخيرا وافق المؤتمر الرابع على صيغة قرار يحدد شروط قبول البوند (على أساس المركزية والتمثيل النسبي في القيادات وارجاء بحث المسألة القومية الى مؤتمر قادم) ، وترك للبوند نفسه مسألة اتخاذ القرار النهائي بصدد الاندماج .

وبالفعل عقد البوند في صيف ١٩٠٦ مؤتمره السابع وقرر باغلبية ٤٨ صوتا ضد ٢٠ الموافقة على شروط الاندماج التي وضعها مؤتمر التوحيد . ولكن موافقة البوند هذه لم تكن الا موافقة شكلية محضة شان الوحدة التي تحققت اصلا بين المنافشة والبلاشفة . وقد اعلن مدم غولديلات ، زعيم البونديين ، بصراحة تامة ان البوند عاود الانتساب الى الحزب لا ليتبنى خطته بل ليدفع به السى تبني الخطة البوندية : « نحن لم ننتسب الى الاشتراكية – الديمقراطية بقية الاستسلام للدعة ، بل رغبة في النضال . فلما كان بيننا للدعة ، والماليوفيون (١) وخدمهم يستطيعون ترقبها في مستقبل قريب . يجب على البوند ان ينتسب للحزب وهو مسلح من اخمص قدميه حتى قمة راسه » .

اما لينين فقد رحب من جهته بقرار المؤتمر السابع للبوند بالاندماج ، وكتب فسي ايلول ١٩٠٦ مقالا تقريرا عن اعمال هذا المؤتمر (٢) . وقد تضمن المقال احصائية بالغة الاهمية عن اعمال هذا الحزب آنذاك (اكثر من ١٠٠٠٠ عضو) ، ومنها نتبين ان عدد اعضاء البوند اكبر من عدد البلاشفة والمنافشة مجتمعين (٣٣٠٠٠) بوندي مقابل ٣١٠٠٠ روسي (٣) . واذا ما اضعنا الى هذه الارقام ٢٦٠٠٠ بولوني و ١٤٠٠٠ ليتوني ، اتضح لنا ان عدد الاشتراكيين – الديمقراطيين الروس كان أقل من ثلث العدد الاجمالي لاعضاء الحزب بعد اعادة توحيد . وقد عاد لينين في مقال آخر له (٤) بعد شهرين يؤكد الاحصائية نفسها ويشير في الوقت ذاته السى ان البولونيين والليتونيين اصطفوا الى جانب البلاشفة فسي حين اصطف البولونيون الى جانب المنافشة (كان تقدير البلاشفة آنذاك ١٣٠٠٠ مقابل ١٨٠٠٠ من المنافشة) .

والواقع ان تحالف البوند مع المنافشة يعود تاريخه كما رأينا السى صيف ١٩٠٣ ابان المؤتمر الثاني . وقد تبنى البوند معظم مواقف

١ – مانيلوف : من شخصيات « النفوس الميتة » لفوغول ، مثال من يحيا في عالم الاوهام .

٢ – « اتحاد البوند وحزب عمال روسيا الاشتراكي – الديمقراطي » – م . ك – م ١١ – ص ١٩٥ – ١٩٦ .

٣ – يجب الا يغيب عن ذاكرتنا ان هذا الرقم (٣١٠٠٠) يشمل ايضا الحزبيين غير الروس ممن لم ينتسبوا الى تنظيم قومي مستقل .

٤ – « حول دعوة مؤتمر استثنائي للحزب » – م . ك – م ١١ – ص ٢٧١ .

١ – « كفانا اذليل » – م . ك – م ٩ – ص ٣٠٤ .

٢ – « رد لاذع » – م . ك – م ٩ – ص ٣٤١ .

٣ – « رسالة الى اللجنة المركزية » – م . ك – م ٣٤ – ص ٣٤٩ .

مؤتمره السادس في عام ١٩٠٥ عاود بحث المسألة بمزيد من التفصيل . ومنذ ذلك الحين راح يكتشف أكثر فاكثير مدى تلاؤم البرنامج النمساوي مع فكرته عن وجود أمة يهودية . فلقد كان تعداد اليهود في الامبراطورية القيصرية يتراوح بين خمسة وستة ملايين ، وكانوا مبعثرين في شتى ارجائها ولا يشكلون غالبية في أي اقليم من الاقاليم . ولو ان البوند لم يقل بحيوية القومية اليهودية ، لكان اكتفى بالبرنامج الاشتراكي - الديموقراطي الروسي في المسألة القومية . ولكنه من اللحظة التي تبنى فيها الفكرة الصهيونية عن الامة اليهودية ، أمسى لزاما عليه ان يتبنى البرنامج النمساوي . ولو ان مثل هذا البرنامج لم يكن موجودا لاقدم حتما على اختراعه كما يقول سنالين . ذلك ان البوند لم يكن يابه لمصير ابناء القوميات التي تتألف منها الامبراطورية الروسية ، بل كان همه الاول منصبا على الحيولة دون اندماج اليهود بالقوميات التي يحيون بين ظهرانيها . ومن هنا فقد وقف موقف اللامبالاة من مبدأ حق الامم في تقرير مصيرها ، في حين ركز جهوده كلها على شعار الاستقلال الذاتي الثقافي باعتبار ان هذا البرنامج يكفل للامم تطورها وحفاظها على خصائصها ويحول بالتالي دون اندماج اليهود . والواقع ان البوند اعتبر ان محور المسألة القومية يتمثل في عزلة الامم لا في تفاهمها وتقاربها بله اندماجها . وقد ارتفعت في مؤتمره الثامن اصوات تقول ان « الوجود القومي يتجسد في العزلة » ، واصوات أخرى تطالب بانشاء مستشفيات يهودية خاصة لان « المريض ينال على ايدي ذويه قسطا اوفر من الراحة » ولان « العامل اليهودي لن يجد الراحة بين العمال البولونيين بل يجدها بين الباعة من اليهود » (١) . ومن هنا فقد تبنى المؤتمر التاسع لبوند شعار « حق اللغة الاثنية » و « عطلة يوم السبت » من اجل « صيانة » الوجود اليهودي والحيولة دون ذوبانه . وقد أخذت هذه النزعة الانعزالية شكلا خطيرا في المؤتمر التاسع الى درجة تمزيق روح التضامن الطبقي الاممي وتحريض العمال اليهود على العمال غير اليهود . ومن قبيل ذلك « الخطبة النارية » التي القاها احد مندوبي المؤتمر التاسع بصدد الصدامات بين العمال اليهود والبولونيين الناجمة عن البطالة : « نحن ننظر الى العمال البولونيين الذين ينافسوننا على اعمالنا ويحلون مكاننا نظرتنا الى الجزائريين . لذلك فنحن لا نؤازر اضراباتهم وسوف نجربها ، وسوف نرد بالاحلال على الاحلال جوابا على عدم الترخيص للعمال اليهود بالعمل في العامل ، ولن نترك العمال البولونيين يعملون بالالات اليومية . . . اننا اذا لم نقبض على زمام الامر بيد من حديد فإنا العمال سيختارون فيرنا قادة وزعماء » .

ان سياسة البوند في المسألة القومية يمكن تلخيصها في هذه العبارة التي وردت على لسان أحد خطباء مؤتمره الثامن : « صيانة كل ما هو يهودي ، الاحتفاظ بكل الخصائص القومية اليهودية حتى تلك التي تنزل الاضرار الفادحة بالبروليتاريا ، وعزل اليهود عن كل ما هو ليس يهودي » . ومثل هذه السياسة كان حتما عليها ان تجد تعبيرها الاكمل في برنامج الاستقلال الذاتي الثقافي لانه بالتعريف البرنامج الذي يأخذ على عاتقه « صيانة الخصائص القومية للامم » . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان هذا البرنامج هو بالتعريف أيضا ما فوق اقليمي، وبالتالي قابل للانطباق على « الامة اليهودية » اكثر من أي أمة أخرى في الارض على وجه التحديد لانها « أمة » بلا أرض ، امكن لنا ان نفهم الاسباب التي دفعت بالبوند الى تبنيه بحماسة فاقت حماسة النمساويين .

وقد بدأت المناظرة بين لينين والبوند بصدد برنامج الاستقلال الذاتي الثقافي اعتبارا من صيف ١٩١٢ عندما عقد المصنفون مؤتمره في شهر آب من ذلك العام ووافقوا ، كما رأينا في فصل سابق ، على اقتراح البوند بتبني شعار الاستقلال الثقافي ناقضين بذلك برنامج المؤتمر الثاني لعام ١٩٠٣ . وقد اكتفى لينين في مرحلة أولى كما رأينا

١ - سنالين : « الماركسية والقضية القومية » - ص ٨٤ .

بالرد على البونديين والمصنفين بلسان سنالين ، وذلك عندما طلب اليه ان يعد دراسة عن « الاشتراكية - الديموقراطية والمسألة القومية » . ودراسة سنالين هذه تظل ، بالرغم من كل ما قيل عنها ، وثيقة لينينية ثمينة من وثائق تنفيذ المطلقات النظرية والنتائج العملية لبرنامج الاستقلال الثقافي .

واول ما يلفت النظر في جدال لينين مع البونديين حول برنامج الاستقلال الثقافي أنه لم يترك مناسبة الا اشار فيها الى ان البوند والاحزاب البورجوازية اليهودية هي وحدها التي تبنت ذلك البرنامج دون غيرها من احزاب روسيا . وكانت هذه الملاحظة تثير سخط البوند الشديد لانها تفضح اكثر من غيرها النزعة الخصوصية التي انساب الى مستقعمها البونديون ومن لف لفهم من الصهيونيين السافرين والمتنعمين . وبالواقع ليست الصدفة هي التي املت على البوند ان يتبنى اسوأ ما لدى الاشتراكية - الديموقراطية العالية من نظريات قومية وان يختار من متحفها الآثار الاقل ذوقا (١) . ذلك ان القائمين بحيوية الامة اليهودية التي هي « أمة » مشكوك في حاضرها ومستقبلها والداعين الى تأبين خصوصيتها رغم انف التاريخ الذي يتقدم باتجاه صهر اليهود وتذويبهم ، لا يمكن ان يدافعوا عن فكرتهم هذه الا بكل ما هو مفلول من الاسلحة الايديولوجية وكل ما هو ميت مردول من الحجج الشوفينية .

وليت البوند جنى ثمرا ولو قليلا من لجوئه الى الترسانة الايديولوجية العفنة المهترئة التي اصطلح على تسميتها بالدرسة الماركسية النمساوية . فجميع النظريين الذين ساهموا في بناء هذه الترسانة (اوتو باور) او اعتبروا برنامج الاستقلال الذاتي الثقافي برنامجا مقبولا (كارل كاوتسكي) يرفضون الاعتراف بحيوية الامة اليهودية التي لا تعدو ان تكون في نظرهم طائفة لا أمة . فهذا باور يقول ان « الاستقلال الذاتي القومي لا يمكن ان يكون مطلب العمال اليهود ، لان المجتمع الرأسمالي لا يمكن اليهود من المحافظة على انفسهم بوصفهم أمة » . وهذا كاوتسكي يصرح ان « يهود غاليسيا وروسيا طائفة اكثر منهم أمة ، والمحاولات المبذولة لتشكيل أمة من السكان اليهود هي محاولات لتأييد طائفة » . (٢)

واذا كان واضعو برنامج الاستقلال الذاتي الثقافي وانصاره في اوساط الاشتراكية - الديموقراطية العالية هم اول من يعلن ان هذا البرنامج غير قابل للتحقيق بالنسبة الى اليهود ، فاي حجة تبقى للوند؟ حجة وحيدة لا غير هي تلك التي تشهرها الاوتوقراطية البغيضة والرجعية السوداء . فباستثناء البوند والاحزاب اليهودية البرجوازية لم يتبن أحد في روسيا فكرة تأميم (٣) المدارس اليهودية التي هي من صلب برنامج الاستقلال الثقافي غير الاوتوقراطيين المسؤولين عن وزارة « التعليم » الروسية . وماذا يعني هذا التأميم ؟ انه يعني عزل الطلاب اليهود باعتبارهم تابعين لامة او طائفة منبوذة محتقرة في مؤسسات تعليمية يهودية خاصة وعدم السماح لهم بدخول المدارس الاخرى سواء كانت خاصة أم حكومية . والحق ان « مثل هذه التدابير والقوانين الموجهة ضد اليهود لم تعرفها البلدان الاوروبية الا في تلك الحقبة المظلمة من تاريخ العصور الوسطى ومحاكم التفتيش واحراق الهراطقة (٤) . والرجعيون من المئة السود والبونديون والبورجوازيون اليهود على حد سواء هم وحدهم الذين يريدون ان يعودوا باليهود الى تلك الحقبة المظلمة . وفي الوقت الذي يسير فيه التقدم التاريخي

- ١ - « ملاحظات نقدية حول المسألة القومية » - م. ك - ٢٠٤ - ص ٤٣ .
- ٢ - « اطروحات حول المسألة القومية » - م. ك - ١٩٢ - ص ٢٦٠ .
- ٣ - أي جعلها خاضعة لاشراف الامة المعنية .
- ٤ - « تأميم المدارس اليهودية » - م. ك - ١٩٢ - ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .

باتجاه دمج اليهود ، وفي الوقت الذي كف فيه اليهود عن أن يكونوا أمة في جميع البلدان المتمدينة وراحوا ينصهرون أكثر فأكثر في المجتمعات المتقدمة ، ترتفع أصوات البونديين وأصوات « المعجيين المولاهين بالمؤخرة اليهودية » لتحتج على تمثل اليهود وانصارهم في المجتمع الروسي الذي ما يزالون يشكلون فيه طائفة ، فئة منبوذة متغلقة على ذاتها ، لا يجريتهم هم بل بجريرتهم هم بل بجريرة الاوتوقراطية والرجعية والمثمة السود .

ذلكم هو المضمون الحقيقي لبرنامج الاستقلال الذاتي الثقافي لليهود وللدعوة للحفاظ على « الخصائص القومية اليهودية » : تأييد وضع اليهود كطائفة منبوذة في مجتمع متخلف والحيلولة دون اندماجهم بالمجتمع كما هي الحال في جميع بلدان العالم المتمدين . وبتعبير آخر واخير ، ليس البونديون ومنش شايهم الا « بورجوازيين صفارا رجميين يريدون أن يعكسوا دوران عجلة التاريخ ، لا باتجاه التقدم من النظام القائم في روسيا وغاليسيا الى نظام باريس ونيويورك ، وانما بالاتجاه المضاد » . (١)

لينين والاسامية

كان لينين يكن كرها عميقا لا قرار له للاسامية . فهذه النزعة البغيضة لم تكن تناقض روح الاشتراكية فحسب ، بل أيضا بديهيات الديموقراطية الاولى . ولقد كان للاسامية جذور راسخة في روسيا القيصرية ، وكانت تمثل عقبة رئيسية لا في وجه انصار اليهود فحسب بل أيضا في وجه تقدم مجمل المجتمع الروسي . وقد طالب لينين منذ مستهل حياته السياسية بالغاء جميع قوانين التمييز العنصري ضد اليهود . وأدان بعنف جميع المجازر التي ارتكبت بحق اليهود كمجزرة كيشينيف وبيلوستوك. وكان على الدوام ينعت الحكومة الاوتوقراطية القيصرية بأنها « حكومة تذبذب اليهود » ، ويفضح دسائسها ومؤامراتها وجرائمها ضد اليهود . وقد كتب أكثر من مقال لفضح « قضية بيليس » التي أرادت الحكومة أن تجعل منها قضية دريفوس ثانية . وقد ندد أكثر من مرة بالعار الذي يلحق بالشعب الروسي بنتيجة المجازر التي ترتكبا الاوتوقراطية باسمه (إبان فترة الثورة الروسية الاولى في عام ١٩٠٥ وقعت فتن طائفية في أكثر من ١٠٠ مدينة وقتل ٤٠٠٠ يهودي وشوه ١٠٠٠٠ غيرهم) .

أما العمال اليهود فكان يؤكد على الدوام بانهم « يتنون تحت نير مزدوج بوصفهم عمالا وبوصفهم يهودا » (٢) ، وقد أشاد أكثر من مرة بأن نسبة الثوريين في صفوفهم أكبر منها في صفوف سائر السكان وبأنهم قدموا للحركة الثورية عناصر قيادية لا تحصى (٣) .

وبعد انتصار ثورة اكتوبر اولى لينين اهتماما خاصا للنضال ضد الاسامية . وقد كرس احد خطاباته القليلة التي سجلت على اسطوانات ووزعت على نطاق واسع لتلك المسألة . وستثبت هنا نص هذا الخطاب لانه يلخص على نحو رائع كل سياسة لينين من الاسامية :

« الاسامية تسمية تطلق على كل عمل يهدف الى زرع الحقد ضد اليهود . وعندما كانت الملكية القيصرية الملغونة تعيش أيامها الاخيرة ، كانت تعمل جاهدة على تأليف العمال والفلاحين الجاهلين ضد اليهود . وكانت الشرطة القيصرية ، المتحالفة مع كبار الملاك العقاريين ومع

١ - « ملاحظات نقدية حول المسألة القومية » - م . ك - م ٢٠ - ص ٢١ - ٢٢ .

(٢) - « مشروع قانون حول تساوي الامم في الحقوق » - م . ك - م ٢٠ - ص ١٧٨ .

(٣) - « تقرير عن ثورة ١٩٠٥ » - م . ك - م ٢٣ - ص ٢٧٣ .

الرأسماليين ، تنظم المجازر ضد اليهود . وقد سقى الملاك العقاريون والرأسماليون الى توجيه حقد العمال والفلاحين الذين ضيق البؤس عليهم الخناق ضد اليهود . وكثيرا ما نشاهد الرأسماليين في البلدان الاخرى أيضا يؤججون جذوة الحقد على اليهود ذرا للرماد في عين العامل ويهدف تحويل انتباهه عن عدو الشغيلة الحقيقي المتمثل في الرأسمال . وكراهية اليهود لا ترسخ جذورها الا حيث يكون نير الملاك العقاريين والرأسماليين قد أغرق العمال والفلاحين في ظلمات الجهل . والجهلة الجهلة والأغبياء المبلدون هم وحدهم الذين يصدقون الاكاذيب والافتراءات المحبوكة ضد اليهود ، والتي هي من مخلفات العصور الوسطى حيث كان الكهنة يحرقون الهرطقة ، والفلاحون مستعبدين ، والشعب مسحوقا ملجوم اللسان . ان جهالة العصر الاقطاعي هذه هي في طريقها الى الزوال . ولقد بدأ الشعب يرى الامور على حقيقتها .

« ان اعداء الشغيلة ليسوا اليهود ، وانما هم رأسماليو جميع البلدان . وان بين اليهود عمالا وشغيلة ، وهم الغالبية . انهم اخوتنا الذين يظهدهم الرأسمال ، ورفاقنا في النضال من اجل الاشتراكية . كذلك فان بين اليهود فلاحين موسرين ومستغلين ورأسماليين ، كما بين الروس والامم الاخرى .

والرأسماليون يسعون الى زرع الكراهية وتأجيج نارها بين العمال من مختلف الاديان والقوميات والعروق . وأولئك الذين لا يكدحون يستمرون بقوة الرأسمال وسلطانه . والأغنياء ، يهودا وروسا ، بل اغنياء بلدان العالم قاطبة ، المتحالفة بعضهم مع بعض ، يسحقون العمال ويضطهدونهم وينهبونهم ويفرقونهم ويمزقون وحدتهم .

« الخزي والعار للقيصرية الملغونة التي كانت تضطهد اليهود وتعذبهم . الخزي والعار لأولئك الذين يتشون الكراهية ضد اليهود ، لأولئك الذين يتشون الكراهية ضد الامم الاخرى .

المرآة والمصباح

للدكتور نعيم عطيه

رواية عصرية استفاد فيها كاتبها من قراءاته الكثيرة في مجال الآداب والفنون العالية . ودراساته النقدية التي نشرت في مختلف المجلات العربية .

وتحكي الرواية قصة حب وصراع غامضين بين أسوار بيت مهجور يراقب فيه حركات السادة خدم تبعث صراوتهم الرعدة في القلوب .

انها رواية تجمع بين خشونة الحياة وغنائيتها . وقد استخدم المؤلف في كتابتها اللغة المسرحية في سرد روايته ، واستعان بالخيال لخلق بعلمه في سماوات الآداب العالمي . وقد تم في صياغة ذاتية عملا مبتكرا جديرا بالقراءة .

تم النسخة خمسة عشر قرشاً .

تطلب الرواية من مكتبات الشركة القومية للتوزيع ومن مركزها الرئيسي ٢٨ شارع رمسيس بالقاهرة ، أو من المؤلف - ٣ شارع فيني - الدفر - القاهرة .

٢٠٤٠٣

« عاشت الثقة الاخوية والتحالف في الكفاح بين عمال جميع الامم في سبيل الاطاحة بالراسمال » . (١)

ولعل خير ما نختم به هذا الفصل تلك الحادثة التي رواها تروتسكي والتي تعبر اكثر من أي شيء آخر عن مدى صدق لينين في محاربه اللسامية وعن مدى رفضه المساومة في مثل هذا الموضوع . في اليوم التالي لانتصار ثورة اكتوبر طلب لينين من تروتسكي ان يتولى وزارة الداخلية لقمع الثورة المضادة . ولكن تروتسكي رفض هذا الاقتراح وتذرع فيما تذرع بحجة القوميات . فلقد كان تروتسكي يهودي الاصل ، وكان يخشى ان يتخذ اعداء الثورة من اصله اليهودي سلاحا اضافيا . وثارت نائرة لينين ورد عليه قائلا :

— اننا نقوم الآن بثورة اومية كبرى فاي أهمية يمكن ان تكون لمثل هذه التفاهات ؟

وأجاب تروتسكي :

— ان الثورة ثورة كبيرة فعلا ، ولكن هناك عددا لا بأس به من الحمقى ...

— وهل يتوجب علينا ان نسير على خطى الحمقى ؟

— كلا ، بالتأكيد . ولكن لا مفر أحيانا من تنازلات صغيرة لصالح البلاءة ... ما حاجتنا الى تعقيدات نحن فسي غنى عنها منذ الايام الاولى ؟ (٢) .

وأصر تروتسكي على موقفه ، وكذلك لينين . وفي النهاية رضخ هذا الاخير على مضمض لقرار اللجنة المركزية بتسمية تروتسكي مفوض شعب للشؤون الخارجية . وكان ذلك في اليوم التالي للاستيلاء على السلطة مباشرة ، وكانت الثورة في غنى فعلا عن تقديم أسلحة اضافية لاعدائها ...

ملاحظتان ختاميتان

الملاحظة الاولى : انساق البوند ابان الحرب العالمية الاولى مع نزمته القومية الى درجة تأييد ألمانيا ضد روسيا . وبعد ثورة اكتوبر تحالف جناحه اليميني مع المناشفة والاشتراكيين - الثوريين وشارك مشاركة فعالة في الثورة المضادة . وفي عام ١٩٢١ حل الحزب نفسه وانضم جناحه اليساري الى الحزب الشيوعي . ويقول المؤرخون الستالينيون ان البونديين او على الاقل قسما منهم لم ينضموا الى الشيوعيين الا بهدف تخريب الثورة من الداخل بعد ان عجزوا عن هزيمتها من الخارج .

والملاحظة الثانية : في عام ١٩٢٠ ، وامام المؤتمر الثاني للاممية الثالثة ، طرحت مسألة الاستعمار الصهيوني لارض فلسطين العربية . وبناء على اقتراح لجنة المسألة القومية والكولونيالية اضاف لينين الى اطروحانه حول هذه المسألة فقرة بادانة الاستعمار الصهيوني لفلسطين . وكانت هي الإشارة الوحيدة في كتاباته الى قضية فلسطين ، ولكنها كانت اشارة كافية . (٣)

جورج طرابيشي

١ - « حول مذابح اليهود » - م.ك - ٢٩ م - ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

٢ - ل. تروتسكي : « حياتي » - باريس ١٩٦٦ - ص ٢٩٥ .

(٣) فصل من كتاب « الماركسية والمسألة القومية » الذي يصدر

للكاتب قريبا عن « دار الآداب » .

صَدْرُ حَدِيثًا

* ستالين

سيرة سياسية

اسحق دويتشر

* مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي

الدكتور عبد العزيز الدوري

* التخطيط الاقتصادي

الدكتور محمود الحمصي

* المنهجية والسياسة

(طبعة ثانية)

الدكتور ملحم قربان

* التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية

في البصرة

في القرن الاول الهجري - الدكتور صالح احمد العلي

* الماركسية في عصرنا

(طبعة ثانية)

الياس مرفص

* الخليج العربي

او الحدود الشرقية للوطن العربي

الدكتور سيد نوفل

* المجموعة الشعرية الكاملة

(الجزء الثاني)

محمد مهدي الجواهري

* أوراق أيامي

مذكرات طالب مشتاق

* سيرة ذاتية

الامير شكيب ارسلان

منشورات

دَارُ الطَّلَيْعَةِ للطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ

بِيرُوت

ص . ب ١٨١٣